الإمام
الدكتور عبد الحليم محمود

الطريق إلى الله

"كتاب الصدق" لأبي سعيد الخرّاز

الطبعة الثامنة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

«كل مافاتك – من الله سوى الله – : يسير ، وكل حظ لك ، سوى الله قليل » .

بهذه الحكمة البالغة التى نطق بها أبو سعيد : نبتدئ الحديث عنه ، ولانبتدئ بهذه الحكمة اعتباطاً ، ولكن لأنها محور تفكيره .

لم تخدعه زخارف الحياة الدنيا ، ولم تلهه مفاتنها ؛ فاختط لنفسه طريق الصديقين ، وسار على نهج أولياء الله ، رضى الله عنهم .

لقد ابتدأ – كما تبتدئ الصفوة المختارة – باحثاً منقباً عن الله ، فوجده ظاهراً فى آثاره :

لقد وجده فى النسمة العليلة ، وفى الزهرة الندية ، وفى النجم المتألق ، وفى شعاع الشمس الذهبى ؛ لقد وجده فى الخير ، وفى الجمال ، وفى الجلال ، فأحبه وهام به . وكانت حالته ، كما يصف هو ، فيقول :

« والمحب يتعلل إلى محبوبه بكل شىء ، ولايتسلى عنه بشىء ، ويتبع آثاره ، ولا يدع استخباره »

وكثيراً ما أنشد تعبيراً عن حاله أيضاً :

أسائلكم عنها ، فهل من مخَبِّرٍ ؟ فمالى بِنعُمٍ – مذنأت دارُها – علم !

فلو كنتُ أدرى أين خيَّم أهلُها ؟ وأيَّ بلاد الله – إذ ظعنوا [1] أمُّوا [2] !

إذن لسلكنا مسلك الريح خَلْفها ولو أصبحت نعمٌ ، ومن دونها النجمُ !

وكثير من الناس من يُفيض الله عليه النعمَ ، ويمنحهم من جوده فينعمون بما أنعم لاهين عنه ، ويتلذذون بما منحهم من أسباب الملاذ ، غير متجهين إليه سبحانه .. !

أما أبو سعيد : فكان مسلكه ، وكان شعاره شيئاً آخر .. إنه يعبر عن منهجه حين يقول :

« ينبغى أن يكون فرحك فى العطاء : بالمعطى ، ولذتك فى اللذات : بخالق اللذات ، وتنعمك فى النعم : بالمنعم دون النعم ، لأن ذكر النعمة ، عند ذكر المنعم : حجاب ، ورؤية النعمة ، عند رؤية المنعم : حجاب » ويشرح حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .. »

فيقول : « واعجباً ممن لم ير محسناً غير الله ، كيف لا يميل بكليته إليه » ! !

وفى الاتجاه إلى الله : نعيم لايعدله نعيم ، ولذة لاتعدلها لذة . . .

وإذا نعم الناس بملبس يبلى ، أو بمطعم لاتلبث حلاوته أن تزول ؛ فإن

---

(١) ظعنوا : ارتحلوا وسافروا .

(٢) أموا : قصدوا واتجهوا .

لأولياء الله نعيمهم المبرأ من الأوضار ! ! [1].

إن لهم نعيمهم الروحى ، ولكن لهم أيضاً نعيم أبدانهم الطيب الطاهر .

يقول أبو سعيد :

« إن الله تعالى عجلَ لأرواح أوليائه التلذذَ بذكره ، والوصولَ إلى قربه ، وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم ، وأجزلَ نصيبهم من كل كائن » فعيش أبدانهم : عيش الجنانيين (أهل الجنة) ، وعيش أرواحهم : عيش الربانيين » .

ولاعجب ، بعد ذلك ، أنه إذا أنس الناس بالأخلاء والأخدان ، أن يكون أنس أبي سعيد بالله ؛ ولاعجب أن يكون حديثه عن الأنس بالله : يمتاز بالدقة والوضوح .

يقول أبو سعيد ، وقد سئل عن الأنس بالله : ماهو ؟ :

« استبشار القلوب بقرب الله تعالى ، وسرورها به ، وهدوؤها: فى سكونها إليه ، وأمنها : معه ، من حيث الروعات ، وإعفاؤه لها من كل مادونه : أن تشير إليه ، حتى يكون هو المشير لأنها ناعمة به ولاتحمل جفاء غيره »

---

(١) الأوضار : جمع وضر ، والوضر : وساخة الدسم واللبن . . . القاموس .

حياته :

بغدادى النشأة والمنبت ، ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى تقريباً ، واشتهر بأبى سعيد الخراز ، واسمه : أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز .

وقد صحب ذا النون المصرى ، وسريًّا السقطى ، وبشر بن الحارث ، ونظراءهم .

يذكره صاحب طبقات الصوفية فيقول :

« هو : من أئمة القوم ، وجلة مشايخهم »

ويذكر أنه قيل :

« إنه أول من تكلم فى علم الفناء » .

أما صاحب الحلية ، فإنه يقول عنه :

« ومنهم : العارف المعروف الكامل ، بالبيان موصوف ، له الكتب المذكورة ، والأجوبة المشهورة ، صحب ذا النون ونظراءه ، انتشرت بركاته على أصحابه ومتبعيه ، سيد من تكلم فى علم الفناء والبقاء »

ويتحدث مؤرخوه ، كلهم تقريباً : بأنه روى الحديث التالى بإسناده :

« سوء الخلق : شؤم ، وشراركم : أسوؤكم أخلاقاً » .

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته :

فيذكر صاحب الرسالة القشيرية : سنة سبع وسبعين ومائتين .
ويذكر صاحب الطبقات : سنة تسع وسبعين ومائتين .

رأيه فى المعرفة :

يهدف الصوفية دائماً ، إلى معرفة ماوراء الطبيعة معرفة يقينية ، ولكن كيف تتأتى المعرفة ؟

إنها – حسبما يرى أبو سعيد – : « تأتى القلب من وجهين : من عين الجود ، ومن بذل المجهود »

إنها فيض من الله ، وإنها اكتساب وجهد ، وفى الوصول إليها السعادة ، بيد أن طريقها – وهو نفس الطريق إلى الله – : ليس سهلا هيناً ، وإذا كانت الغاية نفيسة فلا يتأتى أن يكون سبيلها تافهاً .

كيف نصل إلى الله ؟ ماهو الطريق إليه ؟ كيف نصل إلى خالص العلم ؟ كيف نرد على حياض المعرفة ؟

سئل أبو سعيد عن أوائل الطريق إلى الله ، فبين أنه :

التوبة ؛ ثم ذكر شرائطها ؛ ورسم الطريق الذى يرسمه الصوفية ؛ وهو : طريق نفسانى سيكلوجى ؛ من أدق مايكون ، ينتقل فيه الإنسان من مرحلة إلى مرحلة ؛ مترقياً من مقام التوبة ؛ حتى يصل إلى مقام المحبين ، ويترقى إلى مقام المقربين .

فإذا وصل إلى هذه المرحلة ؛ أدمنت روحه النظر فى النعمة ؛

وفكرت فى الأيادى والإحسان ؛ فانفردت بالذكر ؛ وجالت فى ملكوت عز الله ، بخالص العلم به ، واردة على حياض المعرفة ، إليه صادرة ، ولبابه قارعة . فنعمت وسعدت .

ولنذكر ذلك بأسلوبه ، نقلا عن كتاب : «حلية الأولياء» :

قال أبو سعيد :

«إن أوائل الطريق إلى الله : التوبة»

وذكر شرائطها .

«ثم ينقل من مقام التوبة إلى مقام الخوف .

ومن مقام الخوف إلى مقام الرجاء .

ومن مقام الرجاء إلى مقام الصالحين .

ومن مقام الصالحين إلى مقام المريدين .

ومن مقام المريدين إلى مقام المطيعين

ومن مقام المطيعين إلى مقام المحبين .

ومن مقام المحبين إلى مقام المشتاقين .

ومن مقام المشتاقين إلى مقام الأولياء

ومن مقام الأولياء إلى مقام المقربين .

وذكروا لكل مقام عشر شرائط ، إذا عاناها وأحكمها ، وحلت القلوبُ هذه المحلة : أدمَنتِ النظر فى النعمة ، وفكرت فى الأيادى والإحسان .

فانفردت النفوس بالذكر ، وجالت الأرواح فى ملكوت عزه بخالص العلم به واردة على حياض المعرفة ، إليه صادرة ، ولبابه قارعة ، وإليه فى محبته ناظرة .

أما سمعت قول الحكيم وهو يقول :

أراعى سوادَ الليل أُنساً بذكره وشوقاً إليه ، غيرَ مستكره الصبر
ولكن : سروراً دائما ، وتعرضا وقرعا لباب الرب : ذى العز والفخر

فحالهم : أنهم قربوا فلم يتباعدوا ، ورفعت لهم منازل فلم يخفضوا ، ونورت قلوبهم ، لكى ينظروا إلى ملك عدْن ؛ بها ينزلون ، فتاهوا بمن يعبدون ، وتعززوا بمن به يكتفون .

حلوّا فلم يظعنوا ؛ واستوطنوا محلته ، فلم يرحلوا ، فهم الأولياء ، وهم العاملون ، وهم الأصفياء ، وهم المقربون .

أين يذهبون عن مقام قرب ، هم به آمنون ؟ وعزوا فى غرف ، هم بها ساكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، فلمثل هذا فليعمل العاملون »

فإذا ما ورد الإنسان حياض المعرفة ، هل يتأتى له أن يعلم مايخالف الشريعة ؟

هل الباطن ، وهو المعرفة التى وصل إليها ، يخالف الظاهر ؟

هل الحقيقة تخالف الشريعة ؟ !

يقول أبو سعيد كلمته الحاسمة :

---

(١) حلية الأولياء المجلد العاشر ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

كل باطن يخالف ظاهراً : فهو باطل .

* * *

وكتاب الصدق – وهو الوحيد الذى بقى من آثاره[1] ، والذى نقدمه اليوم ، مغتبطين ، إلى القراء – : كان من الكتب التى يتوارثها الصوفية ، ويحيطونها بالكتمان ، ويضنون بها على غير أهلها ، لأنها ذخيرة نفيسة ، لايصح أن تبتذل للعامة ، وكأنها لؤلؤة مكنونة ، لايستساغ أن تقتحمها أعين الدهماء .

والواقع : أنه مختصر فى غاية النفاسة ، يرسم – فى دقة وفى وضوح – الطريق إلى الله[2] ! !

عبد الحليم محمود

---

(١) لقد كان كتاب الصدق ، هو الكتاب الوحيد إلى عهد قريب جدًّا . ثم اكتشف الأستاذ آربرى مجموعة من رسائل الخراز ، ضمن مخطوط يحتوى على كتب ورسائل صوفية . ولقد حقق الأستاذ الدكتور قاسم السامرائى مايخص الخراز فيها ، ونشر فى مجلة المجمع العلمى العراقى : المجلد الخامس عشر سنة ٦٧ كتاب الصفاء ، وكتاب الضياء ، وكتاب الكشف والبيان ، وكتاب الفرع ، وكتاب الحقائق فجزاه الله خير االجزاء . وقد وقعت هذه الكتب فيما يقرب من أربعين صحيفة .

(٢) كتب الإمام الأكبر رضى الله عنه بعد ذلك مقدمة مختصرة للطبعة الثالثة من الكتاب ، نقتطف منها ما يلى .

إن المسلمين الأول علموا الحقيقة البدهية . وهى : أن المجتمعات ؛ لاتقوم إلا على الأخلاق .

لقد كان واضحاً فى أذهانهم ، ماقاله شوقى رحمه الله : =

....

=وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

لقد كتبوا – رضوان الله عليهم – كثيراً فى الأخلاق ، ليهيئوا بذلك الأمة الإسلامية ، لتكون فى مراكز القيادة فى هذا الجانب .

وأخذ الكتّاب ينشرون الفكرة الإسلامية ، من خـلال القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وسلوك الرسول ﷺ ومن تبعه من الراشدين المهديين .

وبعض الكاتبين التزم فى ذلك القرآن والسنة فحسب ، كما فعل الإمام النووى رضوان الله عليه فى كتابه النفيس «رياض الصالحين» وكما فعل الإمام الحافظ المنذرى فى كتابه المبارك : «الترغيب والترهيب»

وبعض الكاتبين اتخذ القرآن والسنة أساساً ، ثم استفاض فى ذكر آراء الأسلاف السابقين ، وذكر حكايات عنهم : تهدى الإنسان إلى الرشد ، وتقوده إلى الصراط المستقيم .

من ذلك : الكتاب الخالد «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالى .

وكل كتب الأحاديث ، وكل كتب تفسير القرآن ، إنما هى على وجه العموم – تربية للشخص تسير به إلى المثل الأعلى .

وهذا المثل الأعلى ، إنما يتمثل فى معنى كلمة «الإسلام» أى العبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى ، والخضوع المطلق له وحده .

وإنما يتمثل ذلك فى قوله تعالى لرسوله الكريم :

(قل إنّ صَلاَتى ونُسُكى ومَحْيَاىَ ومَمَاتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أول المسلمين) .

إن الهجرة إلى الله : أسساً وبواعث ، وغاية وأهدافاً وكيفية ، يضمها كتاب الله وسنة رسوله .

وماتضمنه كتاب الله وسنة رسوله معصوم :

(لايأْتِيه البَاطِلُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ ولاَ مِن خَلْفِهِ) .

ومن أجل ذلك : تشبث أسلافنا – رضوان الله عليهم – بهذه العصمة ، وكتبوا فى ذلك ، =

= متخذين القرآن ، وسلوك رسول الله ﷺ وأقواله : القدوة الحسنة ، والأسوة الكريمة .
واهتدى بهديهم مالاحصر له من الأفراد .
وخلف من بعدهم خلوف : اتجهوا – فى عصرنا الحاضر – إلى «أوربا» يستمدون منها السلوك . وتفرقت بهم الطرق ، وتشتتت بهم الأهواء ، وفسد بهم وبآرائهم الكثير .
وكان لابد من العودة إلى النهج السلفى .
ومن هنا ، كان حرصنا على نشر هذا الكتاب النفيس «كتاب الصدق» .
والله نرجو أن يهدى له ، وأن يهدى به ، وأن يجعله من اللبنات التى يتكون منها الجو الأخلاقى الذى يعتصم بالله سبحانه وتعالى :
(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيم) .

كتابُ الصِّدْق

لأبي سعيد الخرَّاز

سَبيل النجَاة

الإخلاص

الصبر

الصدق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

قال الشيخ الإمام العارف : أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادى الخرّاز قدّس الله روحه ، ونور ضريحه :

قلت لبعض العلماء : أخبرنى عن الصّدق ، كيف هو ؟ ومامعناه ؟ وكيف العمل به ، حتى أعرفه ؟

فقال : الصّدق اسم للمعانى كلها ، وهو داخل فيها .

أتحبّ أن أجيب عن مسألتك جواباً مختصراً أجمله أم أشرح لك العلم والعمل بالأصول التى بها تقوم الفروع ؟

قلت : أريد الأمرين جميعاً ؛ ليكون ذلك علماً لى ، وفقهاً ، ونصرة .

فقال : وفقت ، إن شاء الله !

اعلم : أنّه لابدّ للمريد – المحقّق فى إيمانه ، والمطالب لسلوك سبيل النجاة – من معرفة ثلاثة أصول يعمل بها ، فبذلك يقوى إيمانه ، وتقوم حقائقه ، وتثبت فروعه ، فتصفو ، عند ذلك ، الأعمال وتخلص ، إن شاء الله :

فأوّلها الإخلاص :

لقول الله ، عزّ وجل : (فاعبد الله مخلصاً لهُ الدين ألا لله الدينُ الخالص) [1] .

وقال تعالى : (فادعُوا الله مخلصِين له الدين) [2]

وقال لمحمد ﷺ : (قل : إنى أُمرتُ أن أعبد الله مخلصاً له الدين) [3]

وقال : (قُل الله أعبُدُ مخلصاً له دينى) [4]

وقال جل ذكره : (واذكر فى الكتاب موسى ، إنه كان مخلصاً ، [5] وكان رسولاً نبياً) .

ونحو هذا فى القرآن كثير ، وفى هذا مقنع .

ثم الصدق :

لقول الله ، عزَّ وجلّ : (يَـٰأيُّها الذين آمنوا ، اتقوا الله ، وكونوا مع الصادقين) [6]

وقال تعالى : (فلو صدقُوا الله لكان خيراً لهم) [7] .

---

(١) سورة الزمر : ٢ ، ٣ .

(٢) سورة غافر : ١٤ .

(٣) سورة الزمر : ١١ .

(٤) سورة الزمر : ١٤ .

(٥) سورة مريم : ٥١ وهذا على القراءة بكسر اللام .

(٦) سورة التوبة : ١١٩ .

(٧) سورة محمد عليه السلام : ٢١ .

وقال تعالى : (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)[1]

وقال تعالى : (واذكر فى الكتاب إسماعيل ، إنه كان صادق الوعد)[2]

وقال : (ليسأل الصادقين عن صدقهم)[3]

وقال تعالى : (والصادقين والصادقات)[4]

وهذا كثير فى القرآن .

ثم الصبر :

لقول الله عز وجل : (يـٰأيها الذين آمنوا اصبرُوا وصابرُوا)[5]

وقال تعالى : (ولئن صبرتُم لهو خير للصابرين)[6]

وقال تعالى : (واصبر وماصبرُك إلا بالله) [7] .

وقال تعالى : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)[8]

وقال تعالى : (واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلاً)[9]

---

(١) سورةالأحزاب : ٢٣ .

(٢) سورة مريم : ٥٤ .

(٣) سورة الأحزاب : ٨ .

(٤) سورة الأحزاب من الآية : ٣٥ .

(٥) سورة آل عمران : ٢٠٠ .

(٦) سورة النحل : ١٢٦ .

(٧) سورة النحل : ١٢٧ .

(٨) سورة الطور : ٤٨ .

(٩) سورة المزمل : ١٠ .

وقال تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداةِ والعشِّي ، يريدُون وجهه)[1]

وقال تعالى : (واصبرُوا ، إن الله مع الصَّابرين)

وقال تعالى : (وبشر الصَّابرين)[2] .

فجعل لهم الكرامة بالبشرى .

وهذا كثير مؤكد فى القرآن .

* * *

وهذه ثلاثة[3] أقسام لمعان مختلفة ، وهى داخلة فى جميع الأعمال .

ولاتتم الأعمال إلا بها فإذا فارقت الأعمال فسدت ولم تتم .

ولايتم بعض هذه الأصول الثلاثة إلا ببعض ، فمتى فقد أحدها تعطلت الأخر .

قال : فالإخلاص لايتم إلا بالصدق فيه ، والصبر عليه .

والصبر لايتم إلا بالصدق فيه ، والإخلاص فيه .

والصدق لايتم إلا بالصبر عليه ، والإخلاص فيه .

الإخلاص :

فأول الأعمال : هو الإخلاص .

---

(١) سورة الكهف : ٢٨ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٥٥ .

(٣) الإخلاص ، والصدق ، والصبر.

فالفرض الواجب : أن تؤمن بالله ، وتعلم وتقرّ وتشهد ألاّ إلهَ إلا الله وحده لاشريك له ، وأنه : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، والخالق ، والبارئ ، والمصوّر ، والرزّاق ، والمحيى ، والمميت ، الذى إليه ترجع الأمور ، وأن محمداً عبدُه ، ورسوله ، جاء بالحق من عند الحق ، وأن النبيين حق ، وبالحق أدّوا الرسالة ، وبالغوا[1] فى النصيحة ، وأن الجنة حق ، والبعث حق ، والمردَّ إلى الله تعالى ، يغفر لمن يشاء ، ويُعذب من يشاء .

ويكون ذلك عَقدَك[2] ظاهراً على لسانك ، بلا شك ولاريب ، ساكناً[3] قلبك مطمئناً إلى ماصدقت به وأقررت .

وكذلك لايعارضك — فى كل ماجاء من عند الله على لسان نبيه ، ﷺ — شكٌّ فى كل ماذكره عن ربه ، عز وجل ، غير مخالف لما كان عليه النبى ، ﷺ[4] ، وأصحابه ، وأئمة الهدى ، الذى كانوا قدوة لمن جاء بعدهم من أهل الهداية ، ثم التابعون من بعدهم ، ثم علماء كل عصر ، متبعاً للجماعة ، مخلصاً فى ذلك لله وحده ، لاتريد إلا الله تعالى ، ليتم إسلامك ، وإيمانك ، وتوحيدك .

---

(١) ترقوا فيها إلى أعلى نهاياتها .

(٢) اعتقادك .

(٣) ذهب مابه من شك .

(٤) وذلك قوله تعالى : « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

وهو الذى أمر الله تعالى به حين يقول : (فمن كان يرْجو لقاء ربه فلْيَعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)[1]

فمن شرح ذلك : أن يكون العبد يريد الله ، عز وجل ، بجميع أعماله وأفعاله ، وحركاته كلها ظاهرها وباطنها ، لايريدُ بها إلا الله وحده ، قائماً بعقله وعلمه على نفسه وقلبه ، راعياً لهمه ، قاصداً إلى الله تعالى ، بجميع أمره ، لايحب مدح أحد ولاثناءه ، ولايفرح بعمله – إذا اطَّلع عليه المخلوقون – فإن عارضه [2] من ذلك شىء اتقاه[3] بالسرعة والكراهية ، ولم يكن[4] إليه ، لكن إذا أثنى عليه أحد ، حمد الله على ستره عليه[5] حين وفَّقه لخير رآه العباد عليه .

نعم ثم يخاف عند ذلك ، من عمله الردىء ، وسريرته القبيحة ، التى خفيت على الناس ولم تخف على الله ، فأشفق من ذلك ؛ وخاف أن تكون سريرته أقبح من علانيته .

فهكذا يروى فى الحديث :

«السريرة إذا كانت أقبح من العلانية فذلك الجور ، فإذا استوت

---

(١) سورة الكهف : ١١٠ .

(٢) ظهر له .

(٣) حفظ نفسه منها .

(٤) يركن ويطمئن .

(٥) ستره عليه : رعاية له بإظهار خيره وإخفاء شره .

السريرة والعلانية فذلك العدل . وإذا فضلت السريرة على العلانية فذلك الفضل »

فالواجب على العبد أن يخفى عمله [1] جهده حتى لا يطلع عليه إلا الله تعالى . فذلك أبلغ فى رضا الله . عز وجل . وأعظم فى مضاعفة الثواب . وأقرب إلى السلامة . وأوهن لكيد العدو . وأبعد من الآفات .

وروى عن سفيان الثورى ، رحمه الله ، أنه قال : «ما أعبأ بما يظهر من عملى»

ويروى فى الحديث :

«أن عمل السر يفضل على عمل العلانية سبعين ضعفاً» [2] .

---

(١) قوله : أن يخفى عمله : أى الذى لم يطلب الشرع فيه الظهور . لأن الشعائر كلها كالحج والعمرة والجماعة فى الصلوات و . . إلخ . مطلوب فيها الظهور شرعاً .

وأما غير الشعائر : كالصدقات وعمل البر أيًّا كان . فالأمر فيه على مايأتى : إن كان مرشداً . أو قصد الحث عليه تعين إظهاره ليؤدى المطلوب . كما كان فى حديث : « من سن سنة حسنة فله أجرها . وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

فإظهار الخير والبر بقصد الإرشاد المطلوب .

لكن محل ذالك إذا آنس من قلبه اتجاهاً إلى الله وحده . ولم يخش تمرد الأمارة بالسوء . وإليك ميزاناً لمعرفة ذلك الاتجاه وهو :

إن كان المريد أشد فرحاً وتلذذاً به فى خلوته فعله . وإلا فلا .

(٢) وذلك للأعمال التى لم يطلب الشرع فيها الإظهار .

ويروى : «إن العبد ليعمل العمل فى السر ، فيَدَعه الشيطان عشرين سنة ، ثم يدعوه إلى أن يظهره ، ويذكره ، فيُنقَلَ من ديوان السر إلى ديوان العلانية ، فينقص من ثواب العمل وفضله ، ثم لايزال يذكره بذكره أعماله ، حتى يذكرها للناس ، ويتحلى[1] اطلاعهم عليها ، ويسكن[2] إلى ثنائهم فيصير رئاء»[3].

فهذه الأمور : ضدّ الإخلاص ، وماذكرنا : فهو من جملة الإخلاص الذى لابد للمخلوقين من معرفته والعمل به ولا يسعهم جهله ، وتبقى الزيادة فى الإخلاص مع العبد إذا أحكم هذه الأصول .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : مما يمكن أن يذكر أن يكون العبد لايرجو إلا الله ، ولايخاف إلا الله ، ولايتزين إلا لله ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يبالى ، إذا وافق الأمر الذى فيه محبة الله ورضاه ، مَن سَخطه .

وما بقى من ذكر غاية الإخلاص أكثر ، وفى هذا بلاغ للمريدين السالكين للطريق !

---

(١) يجد لذة فى إطلاعهم عليها .

(٢) يرتاح ويركن .

(٣) رياء .

الصبر :

والصبر اسم لمعان ظاهرة وباطنة ، فأما الظاهرة فهى ثلاث :

فأولها : الصبر على أداء فرائض الله تعالى ، على كل حال ، فى الشدة والرخاء ، والعافية والبلاء ، طوعاً وكرهاً .

ثم الصبر الثانى : هو الصبر عن كل ما نهى الله تعالى عنه ، ومنع النفس من كل مامالت إليه بهواها مماليس لله تعالى ، فيه رضاً ، طوعاً وكرهاً .

وهذان صبران فى موطنين : هما فرض على العباد أن يعملوا بهما .

ثم الصبر الثالث : هو الصبر على النوافل ، وأعمال البر ، مما يقرب العبد إلى الله تعالى ، فيحمل نفسه على بلوغ الغاية منه للذى رجاه من ثواب الله ، عز وجل .

وهكذا يروى ، أن النبى ، ﷺ فيما رواه عن ربه ، عز وجل قال : « ماتقرب إلىّ عبدى بمثل ما افترضته عليه ، ولايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه »[1]

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسوا الله ﷺ : « إن الله تعالى قال : من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ومايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » رواه البخارى .

والصبر الرابع : (١) هو الصبر على قبول الحق ممن جاءك به من الناس ، ودعاك إليه بالنصيحة ، فيقبل منه ، لأن الحق رسول من الله ، جل ذكره ، إلى العباد ، ولايجوز لهم رده . فمن ترك قبول الحق ورده فإنما يرد على الله ، تعالى ، أمره !

وهذا ظاهر الصبر الواجب على الخلق الذى لايسعهم جهله ، ولابد لهم منه .

وبقى شرح حقائق الصبر وغايته ، الذى يكون مع الصابرين بعد إحكام هذا الصبر الذى ذكرناه .

قلت : فالصبر فى نفسه ، ماهو وما موجوده فى القلب ؟

قال : الصبر هو احتمال مكروه النفس .

وموجوده : إذا وقع بالنفس ماتكرهه تجرّعت ذلك ، وأنفت الجزع ، وتركت البث والشكوى ، وكتمت مانزل بها .

لأنه يروى فى الحديث : «من بثّ (٢) فقد شكا»

ألم تسمع الله ، تعالى ، يقول : (والكاظمين (٣) الغيظ والعافين

= وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ، قال : «إذا تقرب العبد إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإذا تقرب إلى ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإذا أتانى يمشى أتيته هرولة .» رواه البخارى .

(١) هو الصبر الباطن .

(٢) أذاع ونشر سبب الضيق الذى ألم به .

(٣) الذين يخفون غيظهم فلا يظهرونه .

عن الناس) [1]

أفلا ترى أنه كظم ما كَرِهَ ، وشق على نفسه احتماله ، فصار صابراً ؟ فإذا أبدى الجزع وكافأ من أساء إليه [2] ، ولم يعف عمن أساء إليه : خرج من حدّ الصبر على هذا القياس .

قلت : فبماذا يَقوى الصابرُ على الصبر ، وبماذا يتم له ؟

قال : يروى فى الحديث :

« إن الصبر عن المكاره ، من حسن اليقين » .

ويروى :

(إن الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله » [3]

وذلك أن العبد لما آمن بالله تعالى ، وصدّق قوله فى الذى وعده وتواعده ، قامت فى قلبه الرغبةُ فى ثواب الله تعالى ، الذى وعده ، ولزمت قلبَه الخشيةُ من عقاب الله الذى تواعده ، وصحت عند ذلك رغبته ، وقامت عزيمته فى طلب النجاة مما يخافه ، وهاجت آماله فى الظفر بالذى يرجوه ، فجدّ [4] عند ذلك فى الطلب والهرب ، فسكن الخوف والرجاء قلبَه ! فركب عند ذلك مطية الصبر ، وتجرّع مرارته عند

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٣٤ .

(٢) قابل الإساءة بالإساءة .

(٣) أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب .

(٤) اجتهد .

نزوله ، ومضى فى إنفاذ العزائم ، وحذر من نقصها ، فوقع عليه اسم الصبر .

الصدق :

والصدق اسم لمعان كثيرة :

فأول الصدق هو صدق العبد فى الإنابة [1] إلى الله تعالى ، بالتوبة النصوح .

لقول الله عز وجل : ﴿يَـٰأَيُّها الذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصوحاً﴾ [2] .
وقال تعالى : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جميعاً أَيُّها المؤْمِنُونَ لَعَلَّكم تفْلحُونَ﴾ [3] .
وقال تعالى : ﴿لَقَدْ تابَ اللهُ علَى النَّبىِّ والْمُهاجِرِينَ والأَنْصَارِ﴾ [4] .

فأول التوبة هو الندم على ماكان من التفريط فى أمر الله تعالى ، ونهيه ، والعزيمةُ على ترك العود فى شىء مما يَكْرَه اللهُ ، عز وجل ، ودوام الاستغفار وردّ كل مظلمة للعباد من مالهم ؛ والاعتراف لله ، تعالى ولهم ، ولزوم الخوف والحزن والإشفاق ألا تكون مصححاً ؛ والخوف

(١) أناب إلى الله تعالى : أقبل عليه وتاب .
(٢) سورة التحريم : ٨ .
(٣) سورة النور : ٣١ .
(٤) سورة التوبة : ١١٧ .

ألا تقبل توبتك [1] ولا تأمن أن يكون قد رآك الله تعالى ، على بعض مايكره فمقتك .

وهكذا يروى عن الحسن البصرى ، رضى الله عنه ، أنه قال : مايؤمّنّى أن يكون قد رآنى على بعض ما يكره ، فقال : إعمل ماشئت فلا غفرت ؟

ويروى عنه أيضاً أنه قال : أخاف أن يطرحنى فى النار ولايبالى .

---

(١) إن المؤلف – رضوان الله عليه – يحاول ما أمكن أن يوقظ الضمير الدينى فى قوة ، وأن يهز الشعور الروحى هزة تنبهه من غفلته . وكلامه متجه إلى من شاب توبته شىء من التردد . ولعل الواجب شرعاً : أن يوقن قبول الله لتوبته ، إذا تاب توبة نصوحاً بشروطها ، لأن فى توبة العبد : طلب الغفران من الله تعالى ، وقد جاء :

« ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة . » وجاء : عن الله تعالى :

« أنا عند ظن عبدى بى » أو كما قال .

والمؤمن لاييئس من روح الله ولايقنط ، كما جاء فى الكتاب الكريم ، وجاء فى الأحاديث الصحيحة الكثير من فرح الله تعالى بتوبة العبد الذى جاء إلى الله بقراب الأرض ذنوباً ، ولعل الأنسب أن يقال :

إن التوبة لطف من الله تعالى ، ألذى أيقظ قلبه لتوبته . لأن المعصية تورثه القسوة ، فلم يعد يتذوق حلاوة الطاعة ومرارة المعصية ، فيستمر إلى أن يموت كافراً ولايأمن الشيطان الذى يغريه بالمعصية أولاً ، وأن له أن يتوب ثانياً . وذلك دأب الشيطان مع بعض الصالحين : يزين لهم التوبة بعد المعصية ، وقد غفلوا عما ذكر من يقظة القلب قبل المعصية ، وغفلته بعدها .

نعم : عليه أن يذكر شبح المعصية ، وأنها تؤدى به ، لولا لطف الله الذى نبهه وألهمه التوبة ، وأنه لايضمن ذلك بعد أية معصية ، فيستمر فى حذر من كيد الشيطان ، إنه عدو مضل مبين .

وبلغني أن بعض العلماء لقى بعض الناس فقال له : تبت ؟

قال : نعم .

قال : قُبلتَ ؟

قال : لا أدرى

قال : اذهب فادر .

وقال : «يفنى حزن كل ثكلى [1] وحزن التائب ما يفنى ! »

ومن صدق التوبة : ترك الأخدان والأصحاب الذين أعانوك على تضييع أمر الله تعالى ، والهرب منهم ، وأن تتخذهم أعداء ، أو يرجعوا إلى الله .

فهكذا قال الله عزّ وجلّ : (الأخِلاَّءُ يَوْمِئذٍ بَعْضُهمْ لبعضٍ عدوٌّ إلا المتَّقينَ) [2]

ومن صدق التوبة : خروج المأثم من القلب ، والحذر من خفايا التطلّع إلى ذكر شيء مما أنبت [3] إلى الله منه قال الله ، عزّ وجلّ :

---

(١) التى فقدت ابنها .

(٢) سورة الزخرف . ومنه قوله تعالى :

(ويوم يعض الظالم على يديه يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً ، ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خذولا) وقوله تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) . .

(٣) رجعت : تبت .

(وذرُوا ظاهِرَ الإثمِ وباطِنَهُ)[1]

واعلم أن المؤمن كلما صحّح ، وكثر علمه بالله تعالى ، دقّت عليه التوبة أبداً ، ألا ترى أن النبي ﷺ يقول : «إنه ليغان على قلبي ، فأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة » ؟ [2]

فمن طهر قلبه من الآثام والأدناس ، وسكنه النور ، لم يخفَ عليه ما يدخل قلبه من خفيٍّ الآفة ، ومايلزمه من القسوة : من الهمّة بالزلة قبل الفعل ، فيتوب عند ذلك .

---

(١) عقد القلب على المعصية – سورة الأنعام ١٢٠ .

(٢) رواه أحمد ومسلم وغيرهما . يغان على قلبي : يغشى عليه .

أبواب الصِدْق

في معرفة النفس .
في معرفة العدوّ .
في الورع .
في الحلال الصافي .
في الزهد .
في التوكل على الله .
في الخوف من الله .
في الحياء من الله .
في شكر الله .
في المحبة .
في الرضا .
في الشوق إلى الله .
في الأنس بالله .

باب
الصدق فى معرفة النفس والقيام عليها

قال الله عزّ وجلّ : (يَـٰأيُّها الذينَ آمنُوا كُونُوا قوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهدَاءَ لله وَلَوْ عَلى أنفُسِكُم أو الوالِدَيْنِ والأقْربينَ[1]) .

وقال تعالى فى قصة يوسف ، عليه السلام ، حين يذكر عنه : (وما أُبرِّئُ نَفْسِي إنّ النَّفْسَ لأمَّارة بالسُّوءِ إلا مارِحمَ ربِّى[2]) .

وقال تعالى : (وأما من خاف مقامَ ربهِ ونهى النَّفْسَ عنِ الهوىَ ، فإنَّ الجنَّة هىَ المأوى[3]) .

وقال رسول الله ﷺ : « أعدى عدولك : نفسك التى بين جنبيك ، ثم أهلك ، ثم ولدك ، ثم الأقرب فالأقرب[4] » .

ويرى عنه ﷺ أنه قال « نفس إن قبقها[5] ونغمتها[6] ذمته غداً عند الله » .

---

(١) سورة النساء : ١٣٥ . (٢) سورة يوسف : ٥٣ .

(٣) النازعات : ٤٠ ، ٤١ .

(٤) عداوة النفس لأنها أمارة بالسوء إلا مارحم ربى . وعداوة الأهل ، لعلها من ناحية الفتنة ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة ؛ أو أن ذلك محمول على البعض دون الكل ، وإن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم .

(٥) أطاعها فى شهوتها الجنسية .

(٦) أجابها إلى ماتشتهى من الشراب والسماع .

قيل له : وماهى ؟

قال : « أنفسكم التى بين جنبيكم » .

فمن صفة الصادق فى القصد إلى الله تعالى : أن يدعو نفسه إلى طاعة الله تعالى ، وطلب مرضاته ، فإن أجابته حمد الله ، تعالى ، وأحسن إليها .

فهكذا يروى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أنهم رأوه يوطئ[1] شيئاً يفترشه .

فقيل له : ما هذا ؟

قال : نفسى إن لم أحسن إليها لم تحملنى .

وإن لم تجبه إلى ما يرضى الله ، ورآها بطيئة ، منعها محبوبها من العيش ، وخالفها عندما تهوى ، وعاداها فى الله ولله ، وشكاها إلى الله ، حتى يصلحها له .

ولا يقيم على ذمّها مع الإحسان إليها ، وذكر عيوبها والذم لها ، وما لا يرضاه من فعلها ، مع الإقامة معها على الذى تهواه من الفعل .

وهكذا يروى عن بعض العلماء أنه قال :

« قد علمت أن من صلاح نفسى علمى بفاسدها » .

وكفى بالمرء إثما أن يعرف من نفسه عيباً لا يصلحه ، وليس منتقلا من ذلك إلى توبة .

---

(١) يهيئ .

وقال بعض العلماء : إن كنت صادقاً فى ذمّك لنفسك : فإنّ ذمّك غيرك بما فيك فلا تغضب .

وإذا نازعتك نفسك إلى شىء من الشهوات ، أو شغل قلبك فى طلب شىء مما حرم عليك وحلى لك ، فاتهمها تهمة من يريد صلاحها ، وامنعها من ذلك منع من يريد استعبادها ، واحملها بالامتناع عن الملاذ على اللحوق بمن تقدمها .

فإن الذى نازعتك إليه : لا يخلو من أن يكون حراماً تستحق به السخط ، أو حلالا ، تستوجب به طول الوقوف على المساءلة إذا مضى التاركون للحرام إجلالا له وتعظيماً له ، ووقفوا عن الحلال للانكماش [1] والمبادرة .

فاعمل فى قطاع نفسك عن الحالين جميعاً ، فإنّ من فطم نفسه عن الدنيا ، كان رضاعه من الآخرة ، ومن اتخذ الآخرة أمًّا : أحبّ برّها والورود عليها .

إذا رضى أبناء الدنيا بالدنيا أمًّا ؛ وبرّوها ؛ وسعوا من أجلها ، فارم المؤثرين للدنيا من قلبك بالهجران ، مع النصيحة لهم وتحذيرهم إياها .

واحذر التخلف عن السابقين ، وانظر فى خاصّة نفسك ، وحثّ على ذلك أصفياءك وبطائنك ، فإن السابقين شمروا وشدّوا المآزر ،

(١) لعل المقصود : للانكماش عن طول الحساب والمبادرة إلى الجنة .

وكشفوا عن الرءوس والسوق[1] ، فاغتنموا الصحة ، وبادروا فى النشاط ، ورعوا حقّ الله تعالى ، وحذروا أن يهتكوا ستراً مما نهاهم عنه ، وتحبّبوا إليه برفض ماأباح لهم أخذه ، وتركوا الحرام تعبداً ، والحلال تقرّباً ، وألفوا السهر والظمأ ، وأنِسُوا إلى التبلّغ والاجتزاء باليسير .

باب
الصدق فى معرفة عدوك : إبليس

قال الله ، عزّ وجلّ : (إنَّ الشَّيطَانَ لَكمْ عدُوٌّ فاتخِذُوهُ عدُوًّا ، إنما يدعو حِزبهُ ليكُونوا من أصحابِ السَّعيرِ »[2] .

وقال ، جلّ وعزّ : (يابنى آدم لايَفتننَّكمُ الشيطانُ كما أخرجَ أبويكمْ من الجنَّة)[3] .

وقال تعالى : (وزيَّنَ لهم الشَّيطانُ أعمالهمْ ، فَصدَّهُمْ عن السَّبيلِ)[4] .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « للملَك لِمَّة وللشيطان

---

(١) كناية عن الاجتهاد .
(٢) سورة فاطر : ٦ .
(٣) سورة الأعراف : ٢٧ .
(٤) سورة النمل من الآية : ٢٤ .

لِمَّة : فلمة الملك : إيعاد بالخير ، ولمَّة الشيطان : إيعاد بالشرّ » .

وقال فى خبر آخر : « إنّ الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله خنس [1] ، وإذا غفل وسوس » .

فاقطع مادّته بالعزيمة على مخالفة هواك ، وامنع نفسك من الإفراط والتشوف [2] ، فهما خير أعوانه عليك ، وبهما يقوى كيده ، وإذا اتبعتهما فأحضر عقلك وعلمك الذى علمك الله تعالى ، فقم بهما على نفسك ، وراع قلبك وما يقع فيه ، فما كان من أجناس الخير والعلم فاتبعه ، وما كان من جنس الباطل والهوى فانفه بالسرعة ، ولا تماد على الخطرة [3] ، فتصير شهوة ، ثم تصير الشهوة همة [4] ، ثم تصير الهمة فعلاً .

واعلم أن عدوك إبليس لايغفل عنك فى سكوت ولا كلام ، ولا صلاة ولاصيام ، ولا بذل ولامنع ، ولاسفر ولاحضر ، ولاتفرد ولاخلطة ، ولافى توقر [5] ولاعجلة ، ولا فى نظر ولافى غض بصر ، ولافى كسل ولافى نشاط ، ولا فى ضحك ولا فى بكاء ، ولا فى إخفاء ولا فى إعلان ، ولا حزن ولا فرح ، ولا صحة ولاسقم ، ولا مسألة

---

(١) انقبض وانزوى .

(٢) التعلق بالآمال .

(٣) مايجرى فى القلب من تدبير أمره .

(٤) أول العزيمة أو العزيمة ، والهم بالفتح وحذف الهاء كذلك ، ويحكى ابن فارس (الهمّ ماهممت به إذا أردته ولم تفعله) ولعله هنا يتطابق مع ماذكره ابن فارس .

(٥) اتزان ورزانة .

ولاجواب ، ولا علم ولاجهل ، ولابعد ولاقرب ، ولا حركة ولا سكون ، ولا توبة ولا إسرار .

ولن يألو جهداً فى توهين عزمك ، وفتور نيتك ، وتأخير توبتك ، ويسوِّف بك وقتاً إلى وقت ، ويأمرك بتعجيل مالا يضرك تأخيره ، يريد بذلك قطعك من الخير ، ثم يذكرك فى وقت شغلك بالبر والطاعة ، الحوائج ليقطعك عن خير أنت فيه .

وربما حبب إليك النقلة من بلد إلى بلد ، يوهمك أن غير البلد الذى أنت فيه أفضل ، ليشغل قلبك ، ويعطل مقامك بما يعقبُك الندم إذا أنت فعلته .

فاحترس من عدوك أشد الاحتراس وتحصن منه بالملجأ إلى الله عز وجل ، فإنه أمنع الحصون ، وأقوى الأركان ! فاجعل الله تعالى كهفك وملجأك ، واحذر عدوّك عند الغضب والحدة ، فإنك ، إن استقبلك فى هيج الغضب ، ذكر الله تعالى ، وعلمتَ أنه شاهدك ، أطفأت بمراقبته نيران العزّ [1] وتوقد الحمية ، أجللت من قد علمت : أنه يراك من أن تحدث فى غضبك ما تستحق به غضبه ، فإن الشيطان يغنم منك هيج الغضب وحمية الشهوة .

وأما حذرك إياه عند الحدة ، فإنه يقال : إن الشيطان يقول : «إن

(١) القوة .

الحديد من العباد لن نيئس منه ، ولو كان يحيى بدعائه الموتى ، لأنه تأتى عليه ساعة يحتد ، فنصير منه إلى مانريد »[1] .

« ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

باب
الصدق فى الورع واستعمال التَّقِيَّة

فالصدق فى الورع : هو الخروج من كل شبهة ، والترك لكل ما اشتبه عليك من الأمور .

فهكذا يروى عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لا يكون العبد من المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة مابه بأس »[2] .

قال ﷺ : « الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبين ذلك أمور مشتبهات فمن ترك الشبهات مخافة أن يقع فى الحرام فقد استبرأ لعرضه »[3] .

(١) ولهذا ، لما ذهب رجل إلى النبى ﷺ ، فقال له : أوصنى قال : لاتغضب ، كرر ذلك ثلاثاً .

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى .

(٣) وفى رواية أخرى : « الحلال بيّن ، والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات لايعلمها كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات : فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام : كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

وقال ابن سيرين ، رحمة الله عليه : مافى دينى شىء أيسر من الورع . كل مااشتبه عليه تركته .

وقال الفضيل ، رحمه الله ، يقول الناس : الورع شديد ؛ دع مايريبك إلىمالا يريبك ، فخذ ماحل وطاب من الأشياء ، وابذل المجهود فى طلب الشىء الصافى من الحلال .

لأن الله عز وجل ، قال : «يٰأيُّها الرُّسلُ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً »[1] .

وقال النبى ﷺ ؛ لسعد ، رضى الله عنه : « إن أردت أن يجيب الله تعالى دعاءك ، فكل الحلال »[2] .

وقالت عائشة ، رضى الله عنها : « يارسول الله ، من المؤمن ؟ قال : من إذا أمسى نظر من أين قُرْصه »[3] .

---

(١) سورة المؤمنون : ٥١ .

(٢) وفى حديث آخر : أن النبى ﷺ « ذكر الرجل يطيل السفر ويرفع يديه إلى السماء بالدعاء ، يقول : يارب ، يارب ، ومأكله حرام ، وملبسه حرام ، فأنى يستجاب له ؟ » .

(٣) قرصه : رغيفه . أى من أين أكله .

باب
الصدق فى الحلال الصافى ، إذا وجدته ، وكيف العمل به ؟

فالصدق فى الحلال – إذا وجدته – : أن تأخذ منه مالا بدّ منه على قدر معرفتك بنفسك ، وما يقيم مَيلَها ، ولا تحمل عليها فوق طاقتها فتنقطع ، ولا تصبر معها إلى ماتهواه من السرف ، ولكن خذ مايقيمك بلا تقتير ولا سرف فى الطعام واللباس والمسكن ، واحذر الفضول مخافة الحساب وطول الوقوف .

فهكذا يروى : أنّ رجلاً قال لعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنه : « يا أبا الحسن ، صف لنا الدنيا فقال : حلالها حساب وحرامها عذاب أو عقاب » .

فإذا كان العبد ضعيفاً[1] ، ثمّ ملك الشىء الطيب ، حبسه على نفسه وعلى مَن يمون[2] ، فأنفق منه بالمعروف مخافة أن يكون ، إذا أخرجه لم يصبر ، وجزع ؛ فوقع فيما هو أردى منه ، فكان فى حبسه إياه

---

(١) ضعيف العزيمة والسكون إلى الله .

(٢) يعول .

مزرياً [1] ، على نفسه من ادّخاره ، حين عدم من نفسه الثقة بالله تعالى ، والسكون إليه دون الشيء ، فيكون كذلك حتى يقوى عزمه .

قلت : فكيف مَلَكَ الأنبياء ، عليهم السلام ، الأموالَ والضياعَ ، مثل داوُدَ ، وسليمانَ ، وإبراهيم ، وأيُّوب ، ونظرائِهم ، ويوسفَ عليه السلام ، على خزائن الأرض ، ومحمد ﷺ ، والصالحين من بعد ؟

فقال : هذه مسألة كبيرة . وفيها كثير ؟

اعلم أنّ الأنبياء ، عليهم السلام ، والعلماء ، والصالحين من بعدهم ، رضى الله عنهم أمناءُ الله تعالى ، فى أرضه على سرّه وعلى أمره ونهيه وعلمه . وموضع وديعته . والنصحاءُ له فى خلقه وبريته ، وهم الذين عَقَلوا عن الله تعالى . أمره ونهيه . وفهموا لماذا خلقهم ، وما أراد منهم . وإلى ماندبهم [2] ؟ فوافقوه فى محبته . ونزلوا فى الأمور عند مشيئته ، ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الألباء . القابلين على الله ، والحافظين لوصيته . وأصغوا إليه بآذانِ فَهُومِهم الواعية . وقلوبهم الطاهرة . ولم يتخلفوا عن ندبته [3] . فسمعوا الله . عزّ وجلّ . يقول : (آمِنُوا باللهِ ورَسولِه . وأنفقوا مما جعلكمْ مستْخْلفينَ فِيهِ) [4] . ثم

---

(١) منكراً على نفسه فعلها إذا اطمأنت إلى الشيء وعدمت الثقة بالله ، ويستمر فى إنكاره عليها حتى يقوى عزمه .

(٢) دعاهم .

(٣) دعوته .

(٤) سورة الحديد : ٧ .

قال : (ثُم جعلْنَاكم خلائِفَ فى الأرضِ ، مِنْ بَعْدِهِمْ ، لننْظُرَ كَيْفَ تعملونَ »[1] .

وقال تعالى : (لله مافى السَّموات ومافى الأرْضِ)[2] .

وقال تعالى : (ألا لهُ الخلقُ والأمرُ) .

فأيقن القوم : أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ماخولهم وملكهم ، فإنما هو له ، غير أنهم فى دار اختبار وبلوى ، وخلقوا للاختبار والبلوى فى هذه الدار .

وهكذا يروى عن ابن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين سمع :

(هل أتى على الإنْسَانِ حِينٌ منَ الدّهْرِ[3] لم يكُنْ شيئاً مذكُوراً)[4] .

قال : ياليتها تمّت ؟ ! يعنى عمر ، قبل قراءة : (إنَّا خلقنا الإنْسَانَ مِنْ نُطفةٍ أمشاج نبتليهِ) : فَهَمهمْ ، يقال فى التفسير : عجز فى التلاء عجزاً[5] .

ومعنى قول عمر رضى الله عنه : « ياليتها تمّت » يعنى : لم يخلق ، حين سمع الله تعالى ، يقول : (لم يكُنْ شيئاً مذكُوراً) .

(١) سورة يونس : ١٤ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٤ .

(٣) وقت من الزمن .

(٤) سورة الدهر .

(٥) عجز عن مواصلة القراءة ، وهو تفسير لهمهم .

وذلك من معرفة عمر ، رضي الله عنه ، بواجب حق الله ، وقدر أمره ونهيه ، وعجز العباد عن القيام به ، وقيام الحجّة لله تعالى عليهم ، عند تقصيرهم ، وما تواعدهم به ، إذا ضيعوا .

ويروى عن الحسن . رضي الله عنه أنه قال : « إن الله تعالى ، إنما أهبط آدم ، عليه السلام ، إلى الدّنيا عقوبة ، وجعلها سجناً له ، حين أخرجه من جواره ، وصيره إلى دار التعب والاختبار » .

فمن ملك – من أهل العمل عن الله تعالى ، وأهل الصدق – شيئاً من الدنيا فهو معتقد أنّ الشيء لله جلّ وعزّ ، لا له ، إلا هو من طريق حقّ ماخوّله[1] الله تعالى ، وهو مُبلى به حتى يقوم بالحقّ فيه ، لأنّ النعمة بلاء حتى يقوم العبد بالشكر فيها ، ويستعين بها على طاعة الله تعالى .

وكذلك البلوى والضراء : هو اختبار وبلاء ، حتى يصبر عليه ، ويقوم بحق الله تعالى فيه .

وكذلك قال بعض الحكماء : « العلم كله بلاء حتى يعمل به » قال الله ، عزّ وجلّ : « الذِى خلقَ المَوْتَ والحياةَ ، لِيبْلوكُم »[2] .

وقال : « ولنبلونَّكُم ، حتى نعلَم المجاهِدينَ مِنْكُم والصَّابِرينَ ، ونبلوَ أخباركُم »[3] .

---

(١) ماخوله : مأأعطاه .

(٢) سورة الملك .

(٣) سورة القتال : ٣١ .

فالأنبياء صلوات الله عليهم ، والصالحون ، منْ بعدهم ، الذين أشعرهم الله بأن أبلاهم فى الدنيا بالسعة ، وخولهم . كانوا إلى الله ، جلّ وعزّ ، ساكنين ، لا إلى الشئ ، وكانوا خزّاناً لله ، جلّ ذكره ، فى الشيء الذى ملكهمْ ، ينفذونه فى حقوق الله تعالى ، غير مقصرين ، ولأ مفرطين ، ولا متوانين ، ولا متأولين على الله التأويل ، وكانوا غير متلذّذين بما مُلِّكوا ، ولا مشغولى القلوب بما ملكوا ، ولا مستأثرين به دون عباد الله تعالى .

ومن ذلك ما روى عن سليمان بن داود عليهما السلام ، فى ملكه ، وما أباحه الله تعالى من الكرامة ، حين يقول تعالى :

« هذا عطاؤنا ، فامنن أوامسك بغير حساب »[1] .

قال أهل التفسير : لا حساب عليك فى الآخرة ، وإنما كان عطاء هيناً إكراماً من الله ، عز وجل له .

فذكر العلماء : أن سليمان عليه السلام : «كان يطعم الأضياف الحوارى[2] النقى ، ويطعم عياله الخشكار[3] ويأكل هو الشعير » .

وكذلك روى العلماء : أن إبراهيم الخليل ، صلوات الله عليه : «كان لايأكل إلا مع الضيف ، فربما لا يأتيه ثلاثة أيام الضيف

---

(١) سورة ص : ٣٩ .

(٢) الحوارى : لباب البر وخالص الدقيق .

(٣) الخشكار : خشن الدقيق .

فيطويها . وربما كان يمشى الفرسخ[1] . أو أقل أو أكثر ، تلقياً للضيف » .

قال : « وكان أيوب النبى ، ﷺ ، لا يسمع أحداً يحلف بالله تعالى ، إلا رجع إلى منزله فكفر عنه »[2] .

وروى العلماء : أن يوسف ، عليه السلام : كان على خزائن الأرض ، فكان لايشبع ، فقيل له فى ذلك ، فقال : « أخاف أن أشبع فأنسى الجياع » .

ولقد روى أن سليمان ، عليه السلام : « بينما هو ذات يوم ، والريح تحمله ، والطير تظله ، والجن والإنس معه ، وعليه قميص جديد ، فلصق ببدنه ، فوجد اللذة ، فسكنت الريح ووضعته على الأرض .

فقال لها : مالكِ ؟

فقالت : إنما أمرنا أن نعطيك ماأطعت الله .

ففكر فى نفسه من أين أتى ؟ فذكر ، فراجع ، فحملته الريح » .

ولقد روى : « أن الريح كانت تضعه فى اليوم مرات ، من هذا وأشباهه ! ! » .

فالقوم : كانوا خارجين من ملكهم فى ملكهم ، ناعمين بذكر الله وعبادته ، غير ساكنين إلى ماملكوا ، لا يستوحشون من فقده إن

---

(١) الفرسخ : ثلاثة أميال .

(٢) خشية أن يكون قد حنث فى يمينه وشفقه عليه .

فقدوه ، ولا يفرحون بالشيء ، ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة فى إخراجه .

قال الله تعالى ، للنبى ﷺ : (أولئك الذين هدى الله فبهداهُم اقتده[1]) .

وهذا النبى ، ﷺ : « بينما جبريل ، عليه السلام ، عنده ، إذ تغير جبريل ، فإذا ملك قد نزل من السماء لم ينزل قط ، فقال جبريل عليه السلام : خشيت أنه نزل فىَّ بأمر ، فجاء إلى النبى ﷺ ، بالسلام من عند الله عزّ وجلّ ، وقال له : هذه مفاتيح خزائن الأرض ، تسير معك ذهباً وفضة ، مع البقاء فيها إلى يوم القيامة ، ولا تنقصك مما لك عند الله شيئاً ، فلم يختر النبى ، ﷺ ، ذلك ، وقال : أجوع مرة وأشبع مرة »[2] .

وعدّ ذلك من الله ، عز وجل ، بلوى واختباراً ، ولم يره من الله تعالى ، اختياراً ، ولو كان من الله تعالى ، اختياراً : لقبله ، ولكنه علم أن محبة الله تعالى : فى الترك للدنيا والإعراض عن زينتها وبهجتها .

وبذلك أدبه الله تعالى ، حين قال تعالى : (ولا تمدَّن عينيكَ إلى ما

---

(١) سورة الأنعام : ٩٠ .

(٢) وجاء فى الأحاديث : « خيرت بين أن أكون ملكاً رسولاً أو عبداً رسولاً فاخترت : أن أكون عبداً رسولاً » وفى حديث آخر ، فى دعاء النبى ﷺ « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين » .

متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدُّنيا ، لنفتنهم فيه)[1] .

ويروى عنه ، ﷺ : « أنه لبس حلة لها علم فطرحها وقال : كادت تلهينى أعلامها – أو قال ألهتنى أعلامها – خذونى وأتونى بأنبجانية » .

وكذلك روى : « أنه صنع له خاتم ذهب ليختم به الكتب ، إلى من أمره الله تعالى بإنذاره ، فلبسه ثم طرحه من يده ، وقال لأصحابه : إليه نظرة وإليكم نظرة » .

وكذلك روى : « أنه ، ﷺ ، غير شراك نعله ، فجعل مكانه جديداً فقال : ردوا الشراك الأول » .

وكذلك كل قلب طاهر صاف ، قد أشرف على الآخرة ، وعرف قيام الله تعالى عليه : يفزع من خفايا السكون إلى الدنيا ، والتحلى بشىء منها .

ومثل هذا فى الأخبار كثير ، والعاقل الفطن تكفيه الإشارة إليه بالشىء . وهذا أصحاب محمد ، ﷺ ، حين حثهم على الصدقة ، جاء أبو بكر بماله كله ، لأنه كان أقوى القوم ، فقال له النبى ، صلى الله عليه وسلم : ماخلفت لعيالك ؟

قال : الله ورسوله ، ولى عند الله مزيد[2] .

---

(١) سورة طه : ١٣١ .

(٢) الترمذى قال : حسن صحيح .

أفلا ترى أبا بكر ، رضى الله عنه ، إنما كان سكوناً إلى الله تعالى ، لا إلى شىء ، ولم يكن لشىء عنده قدر ، وكان ماعند الله عنده أسرّ ؟ !

فحين رأى موضع الحق لم يخلف منه شيئاً ، وقال : خلفت الله ورسوله .

ثم جاء عمر ، رضى الله عنه ، بنصف ماله ، فقال النبى ، ﷺ : ماخلفت لعيالك ؟ .

قال : نصف مالى ولله عندى مزيد .

فقد أعطى نصف ماله ، ويقول : ولله عندى .

ثم عثمان ، رضى الله عنه ، يجهز جيش العسرة كله بجميع مايحتاج إليه ، ويحفر بئر رومة [1] .

أفلا ترى أن القوم ، إنما كانوا معدين الشىء لله تعالى ؟ !

ومما يدل على صدق قولنا : أن القوم كانوا خارجين مما ملكوا وهو فى أيديهم ، يعدونه لله عزّ وجلّ .

وقد روى عن النبى ﷺ : أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ، وما خلفناه صدقة » .

أفلا ترى أنهم فى حياتهم : لم يضنوا بالشىء عن الله عز وجل ؟ !

وكذلك لم يورثوه ، وخلفوه لله عز وجل ، كما كان فى أيديهم لله تعالى لم يحدثوا فيه ، ولم يخولوه من بعدهم أحداً .

---

(١) الترمذى والبخارى وغيرهما .

وإن هذا لبلاغ لمن عقل عن الله تعالى وأنصف من نفسه .

وهذا أئمة الهدى بعد رسول الله ﷺ : أبوبكر ، رضى الله من حين ملك الأمر ، وجاءته الدنيا راغمة من حلها ، لم يرفع بها رأساً ، ولم يتصنع وكان عليه كساء يخلله[1] . وكان يدعى : ذا الخلالين .

وهذا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين جاءته الدنيا راغمة ، من حلها ، وكان طعامه الخبز والزيت ، وفى ثوبه بضع عشرة رقعة ، بعضها من أدم ، وقد فتحت عليه كنوز كسرى وقيصر .

وهذا عثمان ، رضى الله عنه ، كأنه واحد من عبيده ، فى اللباس والزى ! ! ولقد روى عنه : أنه رؤى خارجاً من بستان له ، وعلى عنقه حزمة من حطب ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

أردت أن أنظر نفسى : هل تأبى ؟

أفلا ترى أنه كان غير غافل عن نفسه ، وتعاهدها ورياضتها ؟

وهذا على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فى الخلافة ، قد اشترى إزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قميصاً بخمسة دراهم ، فكان فى كمه طول ، فتقدم إلى خراز[2] ، فأخذ الشفرة ، فقطع الكم مع أطراف أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمنةً ويسرةً !

وهذا الزبير ، رضى الله عنه ، يخلف حين مات ، من الدين مائتى

---

(١) يخيط مابه من خال وشق .

(٢) خياط .

ألف أو أكثر ، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل !

وهذا طلحة بن عبيد الله ، رضىَ الله عنه ، يعطى حلى أهله لمن سأله !

فهذا يدل على أن القوم كانوا ، كما قال الله عز وجل ، حين أمرهم ، فقال : (أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه[1]) .

ولا يستحى عبد من عبيد الله من أهل زماننا هذا ، عندما ملك من الشبهات التى علم الله تعالى ، كيف هى ، ومن أين هى ، وكيف قدرها فى قلبه ، وإيثاره لها ، وسكونه إليها دون الله ، عز وجل ، وما لا يحصى من عيبه ، فى تقلبه فى ذلك واشتغاله بذلك ؟

حتى أن أحدهم ليزعم : أنه يملك كما ملك من مضى ، ويحتج بهم فى اتباع هواه مع إقامته على خلاف سنة القوم .

بل الاعتراف لله تعالى ، بالتقصير من العبد الغافل أقرب إلى النجاة ، وسؤاله الله ، عز وجل أن يبلغ مابلغ بالقوم .

بل الاعتراف لله تعالى ، بالتقصير من العبد الغافل أقرب إلى النجاة ، وسؤاله الله ، عز وجل أن يبلغه مابلغ بالقوم .

وبالله التوفيق .

---

(١) سورة الحديد ٨ .

باب
الصدق فى الزهد ، وكيف هو؟ وما هو؟

ولقد فضح الله تعالى الدنيا ، وسماها بأسماء لم يسمها أحد .

فقال تبارك وتعالى : (اعلموا أنما الحياة الدُّنيا : لعبٌ ، ولهوٌ ، وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم . . . الآية)[1] .

أفلا يستحى من يعقل عن الله تعالى ، أن يراه ساكناً إلى اللهو ، واللعب ، فى دار الغرور .

قلت : الدنيا فى نفسها ، ماهى؟

قال : اتفق البصراء من الحكماء على أن الدنيا هى النفس وماهويت .

والحجة فى ذلك أن الله عز وجل ، قال : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا)[2] .

فهذه الأمور التى ذكرها الله عز وجل ، هى من هوى النفس ولذتها ، وبها تلهو عن الآخرة وذكرها .

---

(١) سورة الحديد : ٢٠ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤ .

فإذا ترك العبد ماتهواه النفس ترك الدنيا .

ألا ترى أن العبد قد يكون فقيراً لاشىء له ، وهو يتمنى الدنيا ، ويهوى مجناها ، وينوى أن لو أمكنه منها مايريد ، لتمتع بذلك ونال لذته ؟

فهو عند الله تعالى ، من الراغبين على قدر همته[1] ، إلا أنه أقل حساباً ممن نالها واستمتع بها .

فأول درجات الزهد : هو الزهد فى اتباع هوى النفس ، فإذا هانت على المرء نفسه لم يبال على أى حال أمسى وأصبح ، إذا وافق محبة الله تعالى ، عند ذلك ، على مخالفة نفسه ، ومنعها من محبوبها من الشهوات واللذات والراحات ، ومقارنة الأحباء والأخدان والأصحاب من أهل الغفلة ، ومن كان منهم غويًّا على ذلك الأمر الذى يريده العبد ، فإن آفة العبد : صحبة من يريد مايريد .

ثم أخذ البلغة من الطعام والشراب واللبأس والمنزل والنوم والكلام والنطق والاستماع ، وترك التمنى لشىء من الدنيا ، والحذر من تحليها .

لأن النبى ﷺ قال : « الدنيا خضرة حلوة » .

فيتوهم العبد فناءها ؛ فيقصر فيها أمله ، مع توقع الموت ، والتشوف[2] إلى الآخرة ، والشوق إلى النزول فى دار بقائها ، والعمل فى ذلك !

---

(١) عزيمته .

(٢) الطموح ببصره إليها (التطلع إليها) .

ولذلك يخلع الراحة من القلب بدوام الفكرة ، ومن البدن بدوام الخدمة .

فهذا أول درجات الزهد .

وقال سفيان الثورى ، رحمه الله تعالى ، ووكيع بن الجراح وأحمد ابن حنبل ، وغيرهم : رحمهم الله تعالى : إن الزهد فى الدنيا قصر الآمال .

وهذا يدل على ماقالت الحكماء ؛ لأنه من قصر أمله : لم ينعم ؛ وكانت الغفلة منه بعيدة .

وقالت طائفة من الناس : « الزاهد فى الدنيا هو الراغب فى الآخرة ، الذى قد جعلها نصب عينيه ، كأنه يرى عقابها وثوابها ، فهو عازف عن الدنيا » .

وهكذا يروى أن النبى ﷺ ، قال لحارثة : «كيف أصبحت ياحارثة ؟ »

« قال : مؤمناً حقاً يارسول الله »

فقال النبى ﷺ ، : « وما حقيقة إيمانك ؟ »

قال :« عزفت نفسى عن الدنيا ، فأظمأت لذلك نهارى ، وأسهرت ليلى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ؛ وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتناعمون ، وإلى أهل النار يتعاوون .

فقال النبي ﷺ ، : « مؤمن نور الله قلبه ، عرفت فالزم »[1] وقال بعض العلماء : الزهد خروج قيمة الأشياء من القلب .

والزهد فى الدنيا : يدق جدًّا ويخفى ، ولكل عبد على قدر علمه بالله تعالى زهد .

فمن نفى الرغبة فى الدنيا عن قلبه شيئاً بعد شيء ، يرى غاية الزهد ومن توانى عن نفسه ولم يخالفها عند هواها ، لم يعزف عن الدنيا ولم يشرف على الآخرة .

قال بعض العلماء : الزاهد فى الدنيا حقاً لايذم الدنيا ولا يمدحها ، ولا يفرح إذا أقبلت ، ولا يحزن إذا أدبرت[2] .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : قال بعض البدلاء رحمهم الله تعالى : لايكون زاهداً مستكمل الزهد ، أو يستوى عنده الحجارة والذهب ، ولا تستوى الحجارة والذهب حتى يكون معه من الله تعالى آية ، فتحول الحجارة ذهباً ، فعندها تخرج قيمة الأشياء من قلبه .

وسمعته يقول : لم تستو الحجارة والذهب ، عند أحد من الصحابة ، رضى الله عنهم ، بعد رسول الله ، ﷺ ، إلا عند أبى بكر رضى الله عنه !

---

(١) البزاز من حديث أنس . والطبرانى من حديث الحارث بن مالك . وسندهما ضعيف .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : (لكى لاتأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم) الحديد : ٢٣ .

قلت : فعلى أى معنى زَهِد الزاهدون ؟ !

قال : على معان شتى .

فمنهم من زهد لفراغ القلب من الشغل ، وجعل همه كله فى طاعة الله تعالى ، وذكره وخدمته ، فكفاه الله عند ذلك .

فهكذا : روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من جعل الهم[1] همًّا واحداً كفاه الله سائر همومه » .

وقال عيسى عليه السلام : « بحق أقول لكم : إن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وفى المال داء كبير .

قالوا : ياروح الله ، ماداؤه ؟

قال : لايعطى حقّه .

قالوا : فإن أعطى حقه .

قال: يكون فيه فخر وخيلاء .

قالوا : فإن لم يكن فيه فخر ولا خيلاء .

قال : يشغله استصلاحه عن ذكر الله » .

ومنهم من زهد لخفة الظهر ، وسرعة الممر على الصراط ، إذا حُبس أصحاب الأثقال للسؤال .

فهكذا روى عن النبى ، ﷺ ، أنه قال : « عُرِض علىّ

---

(١) من جعل اتجاهه إلى الله فحسب ، أو إلى التقوى فحسب : كفاه الله جميع مشاكله الأخرى .

أصحابى ، ففقدتُ عبد الرحمن بنَ عوف - أو قال احتبس عليّ - فقلتُ : مابطأك على ؟

قال : لم أزل أحاسب بِعدْل [1] مكثرة مالى ، حتى جرى منى من العرق مالو ورَدَتْ عليه سبعون من الإبل عطاشاً ، قد أكلت حِمْضاً [2] لصدرت [3] عنه رواء ! »

وروى عن النبى ﷺ من غير طريق أنه قال : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ، ومن بين يديه ومن خلفه ، بين عباد الله » .

قال ﷺ : « مامن غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أن الله تعالى ، كان جعل رزقه فى الدنيا قوتاً » [4] .

وروى أن أبو ذر عن النبى ﷺ أنه قال : « مايسرنى : أن لى مثلَ أُحد ذهباً ، أنفقه فى سبيل الله تعالى ، تأتى على ثالثة ، يكون منه عندى شىء ، إلا دينار أرصده لدين » .

ومنهم : من زهد رغبة فى الجنة ، واشتياقاً إليها ، فسلى عن الدنيا

---

(١) العدل : الذى يعادل فى الوزن والقدر .

(٢) نبت فيه ملوحة .

(٣) عادت ورجعت .

(٤) وفى ذلك أيضاً قال ﷺ : « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً » وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين » .

وعن لذاتها ، حتى طال به الشوق إلى ثواب الله تعالى ، الذى دعاه إليه ، ووصفه له عز وجل[1] .

وروى فى الحديث : أن الله جل ذكره يقول : « وأما الزاهدون فى الدنيا : فإنى أبيحهم الجنة » .

وقال بعض العلماء : لاتحسنُ قراءة إلا بزهد !

وأعلى درجات الذين زهدوا فى الدنيا : هم الذين وافقوا الله تعالى فى محبته ، فكانوا عبيداً عقلاء عن الله عز وجل ، أكياساً محبين ، سمعوا الله جل ذكره ، ذَمَّ الدنيا ، ووضع من قدرها ، ولم يرضها داراً لأوليائه ، استحيوا من الله عز وجل ، أن يراهم راكنين إلى شىء ذمه ولم يرضه ، وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضاً ، لم يبتغوا عليه من الله عز وجل جزاء ، ولكن وافقوا الله فى محبته[2] كرماً ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

فأهل الموافقة لله تعالى فى الأمور : هم أعقل العبيد ، وأرفعهم عند الله قدراً .

---

(١) وفى ذلك يقول الله تعالى : (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) الأنفال : ٦٧ .
ومن ذلك قوله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) النازعات .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : (يحبهم ويحبونه) وقوله تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) البينة : ٨ .

وهكذا روى عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، أنه قال : « ياحبذا نوم الأكياس وإفطارهم ! ! كيف غنموا سهر الحمق وصيامهم ؟ ! ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين : أوزن عند الله من أمثال الجبال من أعمال المغترين »[1] .

وفى هذا بلاغ لمن عقل عن الله عز وجل .

وبالله التوفيق .

وروى عن بن عمر عبد العزيز ، رضى الله عنه : أنه نظر إلى شاب مصفر فقال له : « ماهذا الصفار ياغلام ؟ » .

قال : أسقام وأمراض يا أمير المؤمنين !

قال: لتصدقنى !

قال : أسقام وأمراض .

قال : لتخبرنى !

قال : ياأمير المؤمنين ، عزفت نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى حجرها وذهبها ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون ، وأهل النار فى النار يتعاوون[2] .

---

(١) ومن ذلك قوله ﷺ : (الله الله فى أصحابى ، فو الله لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه) .

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ : (أطت السماء وحق لها أن تئط ، لم يبق فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد لله تعالى ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفراش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى) .

فقال له عمر : أنى لك هذا ياغلام ؟

قال : اتق الله يفرغ عليك العلم إفراغاً [١] .

إنه لما قصر بنا عن علم ماعملنا تركنا العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ماعملناه لورثنا علماً لا تقوم له أبداننا [٢] .

وروى عن أبي بكر الصديق ، رضى الله عنه : أنه استسقى ، فأتى بإناء فلما قربه إلى فمه وذاقه نحاه ، ثم بكى ، فقيل له فى ذلك .

فقال : « رأيت رسول الله ، ﷺ ، ذات يوم وهو يدفع بيديه كأن شيئاً يقع ، لا أرى شيئاً ، فقلت : يارسول الله ، أراك تدفع بيديك ولا أرى شيئاً ! فقال : نعم ، تلك الدنيا تمثلت لى فى زينتها ، فقلت : إليك عنى [٣] . ! فقالت إن تنج منى فلن ينجو منى مَنْ بعدك ! »

قال أبو بكر رضى الله عنه : « فأخاف أن تكون أدركتنى » .

قال : « وكان فى الإناء الذى شرب أبوبكر ، رضى الله عنه ، منه : ماء وعسل ، فبكى إشفاقاً من ذلك » .

ويروى فى بعض الحديث : أن أصحاب محمد ، ﷺ : لم يأكلوا

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) وقوله تعالى : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) والآيات كثيرة جدًّا فى هذا الباب .

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ : « من عمل بماعلم ورثه الله علم مالم يعلم » .

(٣) عملاً بقوله تعالى : (ولا تمدن عينيك إلى مامتّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » طه – ١٣١ .

تلذذاً ، ولم يلبسوا تنعماً[1] .

وفى رواية : « أن أصحاب محمد ، ﷺ ، الذين اتسعوا فى الدنيا من بعده – حين فتحت عليهم من حلها – أنهم بكوا من ذلك وأشفقوا ، وقالوا : نخاف أن تكون عُجِّلت لنا حسناتنا » .

فليتق الله عبد ، ولينصف من نفسه ، وليلزم منهاج من مضى ، وليعترف بالتقصير ، ويسأل الله الإقالة !

باب
الصدق فى التوكل على الله عز وجل

قال الله عز وجل : (فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)[2] .

وقال تعالى : (وعلى الله فَتَوَكَّلوا إنْ كُنْتُم مؤْمِنِينَ)[3] .

وقال تعالى : (إنَّ الله يُحبُّ المُتَوَكِّلِينَ)[4] .

وروى عن النبى ﷺ ، أنه قال : « يدخل الجنة من أمتى سبعون

---

(١) لأن ذلك شأن الكافرين ، واسمع قوله تعالى : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » محمد – ١٢ .

(٢) آل عمران ١٢٢ .

(٣) المائدة ٢٣ .

(٤) آل عمران ١٥٩ .

ألفاً بغير حساب ، وهم : لا يتطيرون ، ولا يكتوون ولا يسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون »[1] .

وقال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق توكله : لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خماصاً[2] وتروح بطاناً »[3] .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « العز والغنا يجولان فى طلب التوكل ، فإذا أصاباه أوطنا » .

فالتوكل – فى نفسه ووجوده فى القلب – : هو التصديق لله عز وجل ، والاعتماد عليه ، والسكون إليه ، والطمأنينة إليه فى كل ماضمن ، وإخراج الهم من القلب بأمور الدنيا والرزق ، وكل أمر تكفل الله به ، والعلم بأن كل ما احتاج إليه العبد من أمر الدنيا والآخرة ؛ فالله مالكه والقائم به ، لا يوصله إليه غيره ، ولا يمنعه غيره مع خروج الرغبة والرهبة والخوف من القلب ممن سوى الله تعالى ، والثقة به والعلم الخالص ، واليقين الثابت : أن يد الله المبسوطة إليه ، الموفية له من كل ماطلب ، فلا يصل إليه معروف إلا من بعد أمره ، ولا يناله مكروه إلا من بعد إذنه !

---

(١) متفق عليه .

(٢) جياعاً .

(٣) رواه الترمذى وقال : حسن .

وهكذا روى عن الفضيل ، أنه قال : المتوكل على الله ، الواثق به : لا يتهمه ، ولا يخاف خذلانه .

وكذلك المتوكل على الله : إذا ملّكه الله تعالى شيئاً من أمر الدنيا وفضل عنده ، لم يدخره لغد إلا بالنية أن الشيء إنما هو لله ، وموقوف لحقوق الله ، وهو خازن من خزان الله ، فإذا رأى موضع الحاجة سارع إلى الإخراج والبذل والمواساة ، وكان فى الذى يملك وإخوانه سواء .

وإنما يجب ذلك عليه لأهل الستر خاصة ، والقرابة ، وأهل التقوى ، ثم لعام المسلمين ، إذا رآهم على حال ضرورة غيّر نقص حالهم .

وروى عن النبى ﷺ ، أنه قال : «ليس الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ، ولا بإضاعة المال ، ولكن الزهد فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أَوْثَقَ منك بما فى يدك ، وإذا أصابتك مصيبة كنت بثوابها أفرح منك بها لو بقيت عنك»[1] .

وقال بلال رضى الله عنه : «جئت إلى النبى ، ﷺ ومعى تمر فقال : ماهذا ؟

قلت : شىء ادخرته لإفطارك .

فقال : أنفق بلال ، ولا تخش من ذى العرش إقلالاً ، أما خشيتَ

---

(١) الترمذى وابن ماجه عن أبى ذر .

أن يكون له بخار فى جهنم ! ؟ »[1] .

ويروى عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت : « إنى لست كأسماء – يعنى أختها – إن أسماء لاترفع شيئاً لغد ، وأنا أجمع الشىء إلى الشىء » .

وروى عن عائشة أيضاً رضى الله عنها : « أنها فرقت الدراهم ، وهى ترفع درعها ، فقالت لها خادمتها : ألا أبقيت درهماً للحم ؟ قالت : أفلا ذكرتنى ! » .

وروت عائشة رضى الله عنها ، عن النبى ﷺ : أنه بات فى مرضه الذى قبض فيه شبيهاً بالقلق ، فلمّا أصبح قال : « مافعلت الذهبية ؟ – وكانت قيمتها ستة وخمسين درهماً – فقال : أخرجيها ، فما ظنّ محمَّد بربه لو لقيه وهذه عنده ؟ ! » .

وروى عن مسروق رحمة الله عليه ، أنه قال : « أوثق ما أكون بالله إذا قالت الخادم : ليس عندنا شىء ! »

قلت : فالتوكل على الله تعالى بالأسباب أو بقطع الأسباب ؟

قال : بقطع أكثر الأسباب ، وتتخطّى إلى المسبِّب ، فتسكن إليه[2] .

---

(١) البزاز وأبو يعلى والطبرانى بنحوه ، وأسانيده كلها ضعيفة . وقال الهيثمى : إسناده حسن .

(٢) وفى ذلك يقول الله ، تعالى : (أليس الله بكاف عبده) ؟ .

قلت : وهل يتداوى المتوكل ، أو يتعالج ؟

قالَ : الأمر فى هذا على معان ثلاثة : وقد خصّ تبارك وتعالى بترك الدواء والأسباب طائفة ، لقول النبى ﷺ : « يدخل الجنة من أمّتى سبعون ألفاً بلا حساب ، هم الذين لا يكتوون ، ولا يسترقون ، وعلى ربّهم يتوكلون ! »[1] .

وقال النبى ﷺ : « ماتوكّل من اكتوى واسترق ! »[2] .

وقال ﷺ : « من ردّته الطِّيَرَةُ فقد قارن الشرك »[3]

وقد أمر النبى ﷺ ، بالدواء والرقى وأمر بالرقية ، وقطع لأبىَ بن كعب رضى الله عنه ، عرقاً .

فهذا على معانى قول المغيرة بن شعبة : لم يتوكل من اكتوى واسترقى من هؤلاء السبعين ألفاً ، الذين خَصَّهم النبى ﷺ ، كذلك فسّره بعض العلماء .

وما كان من سوى ذلك : فمباح لهم من سائر الناس ، وهو غير ناقص من توكلهم ، إذا كان معهم العلم والمعرفة ، وكان نظرهم إلى ربّ الداء والدواء ، إن شاء أن ينفع بالدواء ، وإن شاء أن يضرّ .

وقد يطلب شفاءه بالدواء فيكون فيه سقمه ، وقد مات غير إنسان من الدواء وقطع العرقِ ، ولما طلب الشفاء ، وقد يرجو منفعته فى الشيء

---

(١) متفق عليه .

(٢) الترمذى بنحوه وحسنه ، والطبرانى واللفظ له .

(٣) أحمد والطبرانى بسند حسن عن ابن عمرو .

فتكون فيه مضرّته ، وقد يخاف الضرر من شيء ، فتكون فيه المنفعة .

فالصادق واثق متوكل على ربّه ، فإنما توكل عليه ، حين علم أنه حَسْبه من جميع خلقه ، فلم يجد فقد شيء يمنعه الله ، لأن الله حسبه وهو بالِغُ أمْرِهِ .

قلت : فمن قال : أتوكَّل على الله لأكْفَى ؟

قال : لايخلو هذا القول من معنيين :

معنى : أن يكفيه مؤنة الجزع والهلع ، لأنه يتحوّل عن شيء قد قدره الله عليه أن ينزل به ، بالتوكل .

فهذا قولنا وقول من أثبت القدر .

ومن قال : إنه يكفيه ما استكفاه لامحالة مثل قوله : لايأكلنى السبع لتوكلى ، والذى يأتينى بطلب يأتينى بلا طلب ، فالتوكل يدفع عنى إذا استكفيه كل مؤنة كنت أخافها ، فليس يعجبنا هذا القول ؛ لأن المتوكل قد يُكْفى وقد لا يكفى وتوكله غير ناقص .

قلت : مثل ماذا ؟ اشرح لى من ذلك شيئاً .

قال : نعم ، حيث ذَبحت يحيى بن زكرياء أمرأةٌ جبارة فى طشت ، ألم يكن متوكلاً ؟ ! .

وحين نُشِرَ زكرياء ، صلوات الله عليه ، بالمنشار ألم يكن متوكلاً ؟ ! .

وكذلك الأنبياء عليهم السلام ، قتلوا ونيل منهم المكروه ، وهم

أقوى الخلْق يقيناً وأصدقه .

وهذا محمد ﷺ ، حين هرب إلى الغار هو وأبو بكر رضى الله عنه ، فاختبئوا فيه ، وحين كسر المشركون رباعيّته ﷺ ، وأدموا وجهه ألم يكن متوكلاً ؟

أفلا ترى أنّ التوكل إنما هو الاعتماد على الله عزّ وجلّ ، والسكون إليه ثمّ التسليم بعد ذلك لأمره ، يفعلُ مايشاء ؟ !

وهكذا روى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « من يتوكَّل على الله فهو حسبه . إن الله بالغُ أمْرِه » قال : قاض أمرَه : « قد جعل الله لكل شىء قدراً » .

قال : أجلاً ومنتهى ينتهى إليه العبد . وليس المتوكل بالذى يقول : « تقضى حاجتى » .

فهذا تفسير ابن مسعود رضى الله عنه : يخبر أن المتوكل على الله هو الذى يلجأ إلى الله تعالى . ويعلم أنه لا يتم شىء إلا من قبل الله تعالى . الذى يعطى ويمنع بقدرته . .

فالمتوكل على الله تعالى : لايستوحش فى حالة المنع . ولا يستجلب بالمتوكل الإعطاء ، لأن الحرص لايعطى ولايمنع . والله جل وعز مانع ومعطى .

وقد يُعْطَى العبدُ الشىء بلا توكل . ويمنع وهو متوكل .

فقد يُرَى المجوسى . والكافر . والجاحد . والفاجر . المضيع لأمر الله

عز وجل ، الذى لاصدق له ولايقين ، فقد يرَى هازلون يكفرون ، وتقضى لهم الحوائج ، والمتوكل الصادق الموقن لاتقضى له حاجة ، حتى يموت ضراء وهزلاء !

وإنما التوكل : ترك السكون إلى أسباب الدنيا ، ونفى الطمع من المخلوقين ، والإياس منهم ، حين علم المتوكل : أنه صائر إلى المعلوم ، فرضى بالله تعالى ، وعلم أنه لايدرك بالتوكل تعجيل ما أخَّرَ الله تعالى ، ولا تأخير ما عجّل ، ولكنه اكتسب إسقاط الهلع والجزع ، واستراح من عذاب الحرص ، وراض نفسه بأدب العلم والمعرفة وقال : ما قَدَّر سيكون ، وما يكون فهو آت .

وكذلك قال بعض الحكماء : انتقم من حرصك بالقنوع ، كما تنتقم من عدوّك بالقصاص .

وقال بعض الصحابة ، رضوان الله عليهم : « دخلت على النبى ، ﷺ ، وفى البيت تمرة غابرة فقال : خذها ، لو لم تأتها لأتتك ! »

حدثنا محمّد بن يعقوب ، قال : حدثنا أحمد بن حنبل ، قال : حدثنا مروان بن معاوية قال : حدثنا المعَلى عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : « أهْدِىَ إلى النبى ﷺ طوائر فأطعم خادماً طائراً ، فلما كان من الغد أتيته به فقال : ألم أنهك أن تخبأ رزقاً لغد ؟ »

فهذا مالايسع الناس جهله من التوكل .

وغاية التوكل : أجل من ذلك .

باب

الصدق فى الخوف من الله عز وجل

قال الله تعالى : (وإِيَّاى فارْهَبُونِ)[1] (وَإِيَّاى فاتقُونِ)[2] .

وقال تعالى : (فَلاَ تَخْشَوُا النَّاس واَخْشَوْنِ) .

وقال تعالى : (يَخافُونَ ربَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)[3] .

وقال تعالى : (كَذَلِكَ إنمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلماءُ)

وقال تعالى : (وَلاَ تَعْمَلونَ مِنْ عَملٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) .[4]

وقال تعالى : (يَعْلَم مَا فى أَنْفسِكُمْ فاحذَرُوهُ)

وقال النبى ﷺ : «خف الله كأنك تراه» .

قال ذلك لابن عباس رضى الله عنه .

فالذى يهيج الخوف حتى يسكن القلب : هو دوام المراقبة لله عز وجل ، فى السر والعلانية ؛ وذلك لعلمك بأن الله تعالى ، يراك ولايخفى عليه شىء من حركاتك ظاهراً وباطناً .

(١) البقرة : ٤٠ و ٤١ .

(٢) النحل : ٥٠ .

(٣) فاطر : ٢٨ .

(٤) يونس : ٦١ .

فعند ذلك يحل مقامه عليك فى كل حركة ظاهرة وباطنة ، وتحذر أن يرى بقلبك شيئاً مما لايحبه ولايرضاه بالوقوف منك على همك ، إذا كان يعلم ما فى نفسك .

فمن ألزم قلبه فى الحركات كلها أن الله تعالى ، يراه رجع عن كل ما يكره بعون الله ، فطهر قلبه واستنار ، وسكنه الخوف ، ودام حذره من الله ؛ فكان مشفقاً فى جميع الأحوال ، وعظَّمَ أمر الله تعالى فى قلبه [1] ، فلم تأخذه فى الله لومة لائم ، وقلّ وصغر من دون الله فى عينه ممن ضَيَّع أمر الله .

وذكر الخوف يطول ، وهذه الأصول التى من استعملها تؤديه إلى الحقائق .

فهذا ظاهر الخوف ومابقى من صفته أكثر.

---

(١) ومن ذلك : قوله تعالى ، حكاية عن خوف المؤمنين : (قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين) الطور : ٢٦ .

باب
الصدق فى الحياء من الله عز وجل

يروى عن النبى ﷺ أنه قال : « الحياء : من الإيمان »[1]

وروى عنه ﷺ أنه قال : « الحياء خير كله »[2] .

وقال ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء ، من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وماحوى ، والبطن وما وعى ، وليذكر المقابر والبِلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا »[3]

وقال النبى ﷺ : « استح من الله كما تستحى من رجل صالح من قومك »[4] .

وقال رجل يارسول الله : مانبدى من عوراتنا وماندر ؟

قال : « استر عورتك إلا من أهلك وماملكت يمينك »

قال : فأحدنا يكون خالياً .

---

(١) مسلم والترمذى .

(٢) مسلم وأبو داوود .

(٣) أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود .

(٤) هذا مثل تقريبى ، وإلا فالله أكبر ، فالاستحياء منه يجب أن يكون على قدره ، ومع هذا فما أحد قدر الله حق قدره ، لأنه لايحيط بقدره حقيقية إلا هو ، والحديث رواه ابن عدى بنحوه .

قال : « فالله أحق أن يستحى منه » .

وكان أبو بكر رضي الله عنه ، إذا ذهب إلى الخلاء يغطى رأسه ويقول :

« إنى لأستحيى من ربى »

وهذه أخبار تدل كلها على قرب الله عز وجل من القوم ، لأن المستحيي من الله تعالى ، يرى اطلاع الله تعالى عليه ، ومشاهدته له فى جميع الأحوال .

قلت : فما الذى يهيج الحياء ؟

قال : ثلاث خصال :

الأولى : تفكيرك فى دوام إحسان الله تعالى ، إليك مع تضييع الشكر منك ، ومع دوام إساءتك وتفريطك .

والثانية : أن تعلم أنك بعين الله عز وجل فى منقلبك ومثواك .

والثالثة : ذكر لوقوفك بين يدى الله عز وجل ، ومساءلته إياك عن الصغير والكبير .

قلت : فما الذى يُشَيِّد الحياء ويقويه ؟

قال : « الخوف لله عز وجل ، عند الهوى الخاطر الواقع فى القلب ! فيفزع القلب ، ويستوحش عندما يعلم أن الله تعالى ، يرى مافيه فيثبت الحياء من الله[1] ، فإذا دام على ذلك زاد الحياء وقوى »

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذاهم مبصرون) الأعراف – ٢٠١ .

قلت : فالذى يولد الحياء ماهو ؟

قال : الفزع من أن يكون الله تعالى ، عنه معرضاً وله ماقتاً ، ولفعله غير راض .

قلت : فما الغالب على قلب المستحيى من ربه ؟

قال : إجلال رؤية ما يراه ، فحينئذ يهاب الله عز وجل ، ويستحيى منه .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : سمعت بعض المريدين سأل بعض أهل المعرفة .

قال : ما علامة هيبة الله فى قلب العارف بالله ؟

قال : إذا استوى عنده الأفعى والذباب .

قلت : فبم يضعف الحياء ؟

قال : بترك المحاسبة وترك الورع .

قلت : فكيف أحوال المستحيى فى نفسه ؟

قال : طول الخشوع ودوام الإخبات[1] ، وتنكس الرأس ، وانحصار الطرف ، وقلة النظر إلى السماء ، وكلال اللسان عن كثير من الكلام ، والفزع من التكشف فى الخلاء ، وترك العبث والضحك ، والحياء عند إتيان ما أباحه الله ، فكيف بذكر عارض ، مما نهى الله تعالى عنه ؟

(١) خضوع القلب .

والناس يتفاوتون فى الحياء على قدر قرب الله تعالى منهم وقربهم منه ،

باب
الصدق فى معرفة نعم الله تعالى والشكر له

قال الله عز وجل : (وَلقَدْ كرَّمناَ بَنِى آدَمَ وحملنَاهمْ فى البَرِّ والبَحْر ورَزَقْنَاهم مِنَ الطَّيِّباتِ وفضَّلْناهمْ علَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلقْنا تَفْضيلاً)[1]

وقال تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمةَ اللهِ لاتحْصُوها)[2] .

وقال : (اذْكُروا نِعْمَتِىَ التى أنْعَمتُ عَلْيكُمْ)[3] .

فإذا أفاق العبد من الغفلة ، فكر ونظر إلى نعم الله تعالى عليه ، وتكاملها قديماً وحديثاً .

فأما نعمه القديمة ؛ فذكره لك قبل أن تك شيئاً ، وماخصك به من توحيده ، والإيمان به ، والمعرفة له ، فأجرى باسمك القلم فى اللوح المحفوظ مسلماً ؛ ثم أهلك القرون السالفة ، وجعلك فى شرذمة من المؤمنين ناجية ، حتى أخرجك فى خير أمة ، وأكرم دين ، ومن أمة

---

(١) سورة الإسراء : ٧٠ .

(٢) سورة إبراهيم من الآية : ٣٤ .

(٣) سورة البقرة فى الآيتين : ٤٠ ، ٤٧ .

حبيبه محمد ، ﷺ ، ثم هداك للسنة واستعملك بالشريعة وباعدك من الزيغ والأهواء ، ثم رباك وكلأك وغذاك حتى وجبت عليك الأحكام .

فأغفلت نعمته ، وفرطت فى حفظ وصيته ، وركبت هواك من عمرك حيناً ، وفى كل ذاك لايكافئك بإساءتك ، بل يسترك ، ويحلم عنك ، وينظرك .

ثم عطف عليك بعد ذلك ، بعد ماكنت شروداً فأيقظك من الغفلة ، وعرّفك ما فاتك من حظك من طاعتك ، فوهب لك الإنابة إليه ، وأجلسك على طيّب مرضاته .

فوجب عليك الآن شكر بعد شكر ! فأى نعماه تحصى . وعلى أيها تشكر ؟

ولابد من معرفة الشكر ، ومباشرته .

والشكر على ثلاثة وجوه :

شكر القلب ، وشكر اللسان ، وشكر البدن .

فأما شكر القلب : «فهو أن تعلم أن النعم من الله وحده لامن غيره»

وأما شكر اللسان : «فالحمد والثناء عليه ، ونشر آلائه ، وذكر إحسانه»

وأما شكر البدن : «فلا تستعمل جارحة – أصحها الله تعالى وأحسن خلقها – فى معصية ، بل تطيع الله ، تعالى ، بها»

وكذلك كل ما خوّلك وملكك من الدنيا جعلته عوناً لك على

طاعته . ولم تحو له فى باطل ، ولم تنفقه فى سرف ، ثم تبذل لله عز وجل ذكره وعزّ جَدُّه الخدمة ، وتعطيه الجهد من نفسك .

وهكذا يروى عن النبى ﷺ : «أنه قام حتى تورمت قدماه ؟ فقيل له : يارسول الله ما هذا التعب ؟ أليس قد غفر الله لك ؟ ؟

قال : أفلا أكون عبداً شكوراً »

وقال الله عز وجل : (اعْمَلُوا آل دَاودَ شُكْرًا)[1]

وقال تعالى : (لئن شكرتم لأزيدنكم)[2]

فإذا بلغ العبد من الشكر لله عز وجل غاية ، انقطع فنظر ، فإذا شكره نعمة من الله تعالى ، تحتاج إلى أن يشكر الله تعالى عليها ، إذ جعله من الشاكرين ، فعمل عند ذلك فى شكر الشكر ! ! ثم كاد يتحير ؛ تواترت عليه من الله تعالى الألطاف بالبر والكرامات .

وبلغنا أنه فيما ناجى به موسى ، عليه السلام ، ربه ، عز وجل ، قال : «يارب أمرتنى بالشكر على نعمتك ، وإنما شكرى إياك نعمة من نعمك» !

فأوحى الله إليه : «لقد علمتَ العلمَ ، إذ علمتَ أن ذاك منى فقد شكرتنى »

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : ذكر النعمة شكرٌ ما ، فدلت النعم على محبة المنعم !

---

(١) سورة سبأ من الآية : ١٣ .

(٢) سورة إبراهيم من الآية : ٧ .

باب
الصدق في المحبة

وقد أجمع الحكماء أنها تستخرج من ذكر النعم.

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ أنه قال: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبونى لحب الله، وأحبوا أهل بيتى لحبى»[1].

وقال الله، عز وجل: (والذين آمنوا أشَدُّ حبًّا لله)[2]

وبلغنى أن الله عز وجل، أوحى إلى عيسى، عليه السلام: «ياعيسى بحق أقول لك: إنى أحَبُّ إلى عبدى المؤمن من نفسه التى بين جنبيه».

وبلغنا عن الحسن البصرى، رضى الله عنه: أن ناساً قالوا، على عهد رسول الله ﷺ: «يارسول الله إنا نحب ربنا حبًّا شديداً» فجعل الله تعالى لمحبته علماً وأنزل، عز وجل:

(قل إن كنتم تحبُّون الله فاتبعونى يحببكم الله)[3]

---

(1) الترمذى والحاكم عن ابن عباس بسند صحيح.

(2) سورة البقرة الآية: ١٦٥.

(3) سورة آل عمران: ٣١. وذكر هذا القول عن الحسن بن كثير فى تفسيره.

فمن صدق المحبة : اتباع الرسول ﷺ فى هديه ، وزهده وأخلاقه ، والتأسى به فى الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها ، فإن الله عز وجل جعل محمداً ﷺ علماً ودليلا وحجة على أمته .

ومن صدق المحبة لله تعالى ، إيثار محبة الله عز وجل ، فى جميع الأمور على نفسك وهواك ، وأن تبدأ فى الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك .

وبلغنا أن موسى عليه السلام ، قال : « يارب أوصنى »

قال الله عز وجل : « أوصيك بى » .

قال : « يارب كيف توصينى بك ؟ »

قال : « لايعرض لك أمران ؟ أحدهما لى والآخر لنفسك ، إلا آثرت محبتى على هواك » .

فالمحب لله : قد جعل ذكر الله تعالى بقلبه ولسانه فرضاً على نفسه ، فهو يتفرغ من الغفلة ويستغفر منها ، وكذلك جوارحه : إنما هى وقف لخدمة من أحبه .

فهو غير ساه ولا لاه وإنما همه أن يُرْضى من أحبه ، فقد بذل المجهود فى موافقته فى أداء فرائضه ، واجتناب مناهيه ، فهو متزين له بكل طاقته ، حذراً من أن يأتى عليه أمر يسقطه من عين من أحبه .

وهكذا روى النبى ﷺ من غير طريق ، أنه قال : « يقول الله عز وجل : ماتقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولايزال يتقرب

إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً ؛ دعانى فأجبته ، ونصح لى فنصحت له »[1]

فعلامة المحب : الموافقة للمحبوب ، والتجارى[2] مع طرقاته فى كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل ما لا يعينه على مذهبه[3]

قلت : فالمحبة على قدر النعم ؟

قال : المحبة بدؤها من ذكر النعم ، ثم على قدر المنعم على قدر مايستحق ؛ لأن المحب لله تعالى يحب الله تعالى – عند النعم ، وعند فقدها ، وعلى كل حال – حبًّا صحيحاً منعه أو أعطاه أو ابتلاه أو عافاه ؛ فالمحبة لازمة لقلبه ، على حالة واحدة ، فى العقد[4] ، ثم هى إلى الزيادة أقرب .

ولو كانت على قدر النعم ، لنقصت المحبة إذا نقصت النعم ، فى وقت الشدائد ووقوع البلاء ، لكن المحب لله تعالى الذى وله[5] عقله بربه ، واشتغل برضاه فكان فى شكره لله وذكره حيران ، كأنه ليس نعمة على أحد إلا وهى عليه ، وهو مشغول بحبه لله عز وجل ، عن كل

---

(١) البخارى بنحوه وفيه هنا زيادات

(٢) التجارى : المسايرة : أى المتابعة

(٣) مذهبه : قصده وطريقته

(٤) العقد : العزم والنية .

(٥) وله عقله : أى ذهب ، والمعنى هنا : اشتد حبه حتى كأنه ذهب عقله .

الخلق ، وقد أسْقَطت المحبة لله تعالى ، عن قلبه الكبر والغل والحسد والبغى ، وكثيرا مما يعنيه من أمر الدنيا من مصلحة ، فكيف يذكر مالا يعنيه ؟ !

قال بعض الحكماء : من أعطى من المحبة شيئاً فلم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع .

وروى عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى ، أنه قال : الحب أفضل من الخوف .

وحدثنا إسماعيل بن محمد قال : حدثنى زهير البصرى قال : لقيت شعوانة ، فقالت لى : ما أحسن طريقتك ! إلا أنك تنكر المحبة !

قلت : ما أنكرها ؟

فقالت لى : أتحب ربك ؟

فقلت : نعم

قالت : فكيف تخاف ألا يحبك وأنت تحبه ؟ !

قلت : أنا أحبه لما أولانى وماندّانى [1] من معرفته ونعمه ، ولى ذنوب أخاف أن لا يحبنى لما كسبْت [2] !

فغشى عليها ، ثم أفاقت فقالت : زه !

(١) ندانى : الندى الجود ، والمعنى هنا : ما أسبغ على من معرفته ونعمه .
(٢) كسب الإثم : أى ارتكبه وتحمله .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : ما أحسن ماقال هذا الرجل ! هذا كلام صحيح ! !

قال أبو سعيد قدس الله روحه : قال رجل من رفعاء البدلاء : من يحب الله كثير الشأن فيمن يحبه الله .

وبالله التوفيق .

وفى هذا بلاغ لمن أعانه الله تعالى وسدده ، وما بقى من صفات المحبين أكثر !

باب
الصدق فى الرضا عن الله عز وجل

قال الله عز وجل : (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَى يُحَكِّموكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيتَ وَيُسَلمُوا تَسْلِيما)[1] .

قال بعض العلماء رحمهم الله تعالى : ماشهد الله تعالى لهم بالإيمان ، حين لم يرضوا بحكم نبيه ، فكيف إذا لم يرضوا بحكمه عز وجل ؟ !

قلت : فما علامة الرضا فى القلب ، وماموجوده ؟ !

قال : سرور القلب بمر القضاء .

(١) سورة النساء : ٦٥ . شجر : وقع من نزاع حرجاً : ضيقا .

وقال بعضهم : الرضا تلقى المصائب بالرجاء والبشر .

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه . أنه قال : كنت خادم النبى ﷺ فما قال لى لشيء قط لما فعلت أو ألا فعلت ! إنما كان يقول : « كذا قضى . وكذا قدر »[1] .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « ما أبالى على ما أصبحت وما أمسيتُ على ماأحبّ أو على ما أكره . لأنى لا أدرى أيُّهما[2] خير لى »

وقال عمر أيضاً : « لو أنّ الصبر والشكر بعيران لى ما أبالى على أيِّهما ركبت »

فهذا يدلك على الرضا من قول عمر رضى الله عنه ، لأن الصبر لا يكون إلا على ما يكره ، والشكر لا يكون إلا على ما يحب . فقال : لا أبالى أيهما وقع لى ، وذلك لاستواء الحالين عنده .

ويروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . أنه قال : « حبذا المكروهات وايم الله ماهو إلا الغنى والفقر . وإن حق كل واحد منهما لواجب إن كان الغنى فإن فيه العطف . وإن كان الفقر فإن فيه الصبر »

---

(١) قضى وقدر : حكم بما سبق فى علمه واقتضاه .

(٢) وفى ذلك يقول النبى ﷺ : (عجباً للمؤمن ، حال المؤمن كله خير له : إن أصابته نعماء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر) . أو كما قال .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أصبحت ومالى فى الأمور من اختيار .

وقال بعضهم : ومالى من النعم سوى مواقع القدر فى ، كائناً ماكان وكان قد سقى السم ، فقيل له : تعالج ، فقال : لو علمت أن شفائى فى أن أمس أنفى أو أذنى مافعلت .

وقال النبى ﷺ لابن مسعود ، رضى الله عنه : «يابن أم عبد لايكْثُرْ هَمُّكَ[1] ، ما يقَدَّرْ يكن ، وماترزق تأكله» .

وقال النبى ﷺ فى قصة طويلة لابن عباس رضى الله عنهما : «فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين ، وإلا ففى الصبر على ماتكره : خير كبير»[2] .

أفلا ترى أنه ﷺ دعاه إلى أعلى الحالين .

وقال بعض الحكماء : إذا استتم فى العبد الزهد والتوكل والمحبة واليقين والحياء صح له الرضا .

وهو عندنا كما قال وإلا فهو مع الناس ، أوقات وخطرات[3] على قدر إيمانهم ، ثم يعودون إلى الصبر .

---

(١) همك : كثرة انشغال بالك . والحديث رواه البيهقى فى الشعب وفى القدر بسند ضعيف .

(٢) الترمذى من حديث ابن عباس ورواه أيضاً الطبرانى .

(٣) خطرات : ما يخطر فى القلب من تدبير

وقال بعضهم : الرضا قليل ، ومعول[1] المؤمن الصبر .

فقلت : اشرح لى قول الحكيم : الراضى يتلقى المصائب بالبشر والسرور .

قال : إن العبد لما صدق فى محبته ، وقعت بينه وبين الله تعالى ، المفاوضة والتسليم ، فزالت عن قلبه التهم ، وسكن إلى حسن اختيار من أحبه ، ونزل فى حسن تدبيره وذاق طعم الوجود به ، فامتلأ قلبه فرحاً ونعيماً وسروراً ، فغلب ذلك ألم المصائب والمكروه والبلوى ، فصار اسم البلوى عليه معلقاً ، فيُستخرج منه إذا نزل به أمور كبيرة ، فتارة يتنعم بعلمه به إذا علم أنه يراه فى البلوى ، وتارة يعلم أنه ذكره فابتلاه ، ولم يغفل عنه ، على عظم قدره أن يولى من أمره مافيه الصلاح ، فيراه تارة يشكو إليه شكوى المحب إلى حبيبه ، وتارة يئن إليه ؛ وتارة يطمع أن يراه راضياً عنه[2] .

فهكذا قال جل ذكره : ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ، ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[3] .

فالرضا تعجله العقلاء عن الله عز وجل ، فى الدنيا قبل الآخرة ، فخرجوا من الرضا إلى الرضا .

(١) معول المؤمن : سلاح المؤمن .

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ بعد أن شكا إليه ضعفه وقلة حيلته وهوانه على الناس : (اللهم إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى) .

(٣) سورة الفجر : ٢٧ ، ٢٨ .

وهكذا قال عز وجل : (رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ وَرَضُوا عَنهُ ، وأعَدَّ لَهمْ جنَّات) الآية .

فقد ذكرنا بعض صفات الراضين من ظاهر ما أمكن أن يذكر مثله فى كتاب ، ومابقى من صفاتهم أكثر .

وبالله التوفيق .

باب
الصدق فى الشوق إلى الله عزّ وجلّ

روى عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى دعائه : « اللهم إنى أسألك لذة العيش بعد الموت ، والنظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك » .

وروى عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، أنه كان يقول : « أحب الموت اشتياقاً إلى ربى »

وروى عن حذيفة رضى الله عنه ، أنه قال عند الموت : « حبيب جاء على فاقة[1] ! ! لا أفلح من ندم » .

وروى عن شهر بن حوشب رضى الله عنه ، أنه قال : « أخذت معاذ ، رضى الله عنه قرحة فى حلقه ، فقال اخنق[2] خنقك ، فوعزتك إنى أحبك » .

---

(١) الفاقة : شدة الحاجة إلى الشىء . (٢) اخنق خنقك : أى اقبض الروح .

وكان على بن سهل المدائنى رحمه الله ، يقوم إذا هدأت [1] العيون ، فينادى بصوت له محزون : « يامن اشتغلت قلوبُ خلقه عنه بما يعقبهم عنه لقائه ندماً ، ويامن سهت قلوب عباده عن الاشتياق إليه ، إذ كانت أياديه [2] إليهم قبل معرفتهم به » ثم يبكى حتى تبكى لبكائه جيرته ، ثم ينادى : « ليت شعرى سيدى إلى متى تحبسنى [3] ! ابعثنى سيدى إلى حسن وعدك ، وأنت العليم أن الشوق قد برح بى ، وطال على الانتظار » ثم يخر مغشياً عليه ، فلايزال كذلك حتى يحرك لصلاة الصبح .

وكان الحارث بن عمير رحمه الله ، يقول إذا أصبح : أصبحت ونفسى وقلبى مصر على حبك سيدى ، ومشتاق إلى لقائك ! فعجل بذلك قبل أن يأتينى سواد الليل ، فإذا أمسى قال مثل ذلك ، فلم يزل على مثل هذا الحال ستين سنة .

فالمشتاق إلى الله تعالى ، هو المتبرم [4] بالدنيا والبقاء فيها ، وهو محب للموت وانقضاء المدة والأجل .

ومن علامته التوحش [5] من الخلق ، ولزوم العزلة والانفراد

(١) هدأت العيون : نامت .
(٢) أياديه : نعمه .
(٣) تحبسنى : تقضى ببقائى .
(٤) المتبرم الضجر .
(٥) التوحش : النفور .

بالوحدة ، ومن شأنه القلق والحنين والحزن والنحيب [1] والكمد [2] والغصة [3] المنكسرة فى الصدر بشدة الشغف [4] والكلف [5] والهذيان [6] بذكر المحبوب ، والارتياح إليه ، والفكرة الصافية بهيجان الهمة [7] ، وجولان [8] الروح فى الغيوب ، لطلب اللقاء والبهت [9] ، والدهش والحيرة عند توهم الظفر بالأمل من المأمول ، ونسيان حظه من الدنيا والآخرة ، إلا رؤية من هو إليه مشتاق ، نعم ، ثم يعارضه الآن الخوف الذى هو الخوف أن لا يصل إلى محبوبه ، ويخاف أن يقطع به دونه ، ويحال بينه وبينه ، ويحجب [10] عنه ، ثم يخاف أن تحدث حادثة ، إذ كان فى دار البلوى ، فقد طالت عليه الأيام والليالى إلى أن يخرج من الدنيا سالماً على الأمر الذى يرضى مولاه .

---

(١) النحيب البكاء .
(٢) الكمد : الحزن المكتوم .
(٣) مايقف فى الحلق من طعام وشراب .
(٤) الشغف : الهوى الشديد .
(٥) الحب والولع .
(٦) الهذيان : الذى يخلط ويتكلم بمالا ينبغى .
(٧) هيجان الهمة : هدة العزيمة .
(٨) جولان الروح : طوفان الروح .
(٩) البهت : الدهش والتحير .
(١٠) يحجب : يمنع .

فهذا بعض مايمكن ذكره من صفات المشتاقين . ومابقى من نعتهم[1] أكثر .

وبالله التوفيق .

باب
الصدق فى الأنس بالله ، تعالى ، وبذكره وقربه

قال بعض الحكماء : الأنس بالله ، جل ثناؤه : أرق وأعذب من الشوق ، لأن المشتاق : كان بينه وبين الله تعالى ، مسافة خفيفة لعلة شوقه . والمستأنس أقرب من الله ، عز وجل[2] .

وهكذا روى عن النبى ﷺ حين أتاه جبريل عليه السلام ، فى صورة رجل ، فسأله عن الإسلام والإيمان ، ثم سأله عن الإحسان . فقال له النبى ، ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك . فقال له : صدقت ! » .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال لابن عمر ، رضى الله عنه : « اعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[3]

---

(١) نعتهم : وصفهم .

(٢) وقد بين النبى ﷺ مظنة القرب ، فقال : « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء فقمن أن يستجاب لكم » .

(٣) رواه الشيخان .

وإنما دله على قرب الله عز وجل ، وقيامه عليه ، ومن قرب الله تعالى ، تُستَخْرج حقائق الأمور فى كل مقام .

فمن كان مقامه الخوف ، أدركه من قرب الله تعالى – حين علم أنه يراه – الحذرُ ، والفَرقُ[1] ، والخشية[2] .

ومن كان مقامه المحبة ، أدركه من حقائق قرب الله تعالى حين علم أنه يراه الفرح والسرور والنعيم والمسارعة فى طلب رضاه والقربة ليراه منافساً راغباً ، يريد القربة إليه ، والمبالغة فى محبته .

والصابر فى وقت بلواه ومصيبته ومايتحمله لسيده : مما يقربه من ثوابه ، حين سمع الله عز وجل يقول : (إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرينَ)

وقال تعالى : (وَٱصْبر لحكْم رَبِّكَ فَإنَّكَ بِأَعْيُننَا)[3] .

سَهُل عليه عند ذلك معالجة الصبر واحتمال مؤنته .

وكذلك أهل كل مقام عبدوا الله تعالى على القربة ، وذلك حين أيقنوا وهم الذين لايكادون يصلون ولايرجعون .

وأما العامة من الناس فإنهم عملوا على ماانتهى إليه من الأمر والنهى ، على رجاء ضعيف فخلطوا ولم يحققوا ! .

فمن صدق الأنس مايروى عن عروة بن الزبير رحمة الله عليه : أنه

---

(١) الفرق : الخوف .

(٢) الخشية : الخوف عن علم ، قال الله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

(٣) سورة الطور : ٤٨ .

خطب إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، ابنته ؛ وهو يطوف ببيت الله الحرام ، فلم يجبه ابن عمر ، ولم يرد عليه جواباً ، ثم لقيه عبد الله بعد ذلك ، فقال له : «إنك كلمتنى فى الطواف ونحن نتخيل الله بين أعيننا » .

فالمستأنس : كأنه ينظر إلى مااشتاق إليه المشتاق :

ويروى عن عبد الواحد بن زيد البصرى رحمه الله تعالى ، أنه قال لأبى عاصم الشأمى رضى الله عنه ورحمه : أما تشتاق إلى الله تعالى ؟

قال : «لا » إنما تشتاق إلى غائب ، فإذا كان الغائب شاهداً فإلى مَنْ تَشْتاق ؟ » فقال عبد الواحد : سقط الشوق :

وروى عن داود الطائى ، رحمه الله تعالى – وكان من المسلمين الذين أجمعوا على صدقه وعدالته – قال أيضاً : «إنما تشتاق الغائب » .

قال بعض العلماء رحمه الله : وإنما قالوا : هذا من حقائق الوجود لقرب الله عز وجل ، كأنهم معه ، إذ كان معهم شاهداً لايغيب ، وذلك من الله تعالى تسكين وتطمين . ورحمة وراحة ، عجلها لهم فى الدنيا ، وإلا فما الذى وصل إليهم من الله عز وجل من قربه ؟ !

فمن علامة المستأنس بالله تعالى ، وبقربه أن يكون واجداً[1] لذكر الله عز وجل فى قلبه ، واجداً لقربه منه لايفقده على كل حال ، وفى كل

(١) واجداً : المقصود هنا الموجود ضد المعدوم .

وقت وكل موطن[1] ، ويكون الله عز وجل وقربه السابق إليه قبل الأشياء ، وذلك إذا سكن قلبَه نورُ قرب الله تعالى منه ، فبه ينظر إلى الأشياء ، وبه يستدل على الأشياء[2] .

وهكذا يروى عن عامر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، أنه قال : «مانظرت إلى شىء قط إلا كان الله تعالى أقربَ إلىَّ منه » .

ومن صفات المستأنس : أن يكون متبرماً بالأهل والخليقة كلهم ، مستعذباً[3] للخلوة والوحدة ، ويكون فى البيت المظلم متبرماً بالمصباح إذا رآه ، بل يجيف بابه[4] ويسبل ستره ويواحد قلبه ، ويألف مليكه ، فيكون به أنيساً ، وبمناجاته متنعماً ، ويكون متفرغاً من طارق يطرقه فينغص عليه خلوته ، ثم تراه مستوحشاً من ضوء الشمس إذا دخل عليه فى صلاته ، ويتثاقل تلقاء[5] الخلق ويملهم ، ويكون لقاؤهم ومجالستهم عليه غراماً[6] وخساراً ، فإذا جنه الليل[7] ، ونامت العيون وهدأت

---

(١) الموطن : الوطن (المكان) .

(٢) وفى الحديث القدسى الصحيح : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . . » متفق عليه .

(٣) مستعذباً : واجداً لها حلاوة .

(٤) يجيف بابه : يغلق بابه .

(٥) تلقاء : تجاه (قباله) .

(٦) غراماً : غُرماً

(٧) جنه الليل : ستره .

الحركات ، وسكنت حواس الأشياء[1] ، خلا عند ذلك بينه [2] .
فهاج شجوه[3] ، وتصاعدت أنفاسه ، وطال أنينه ، وتنجز الموعود من مأموله ، وماقد غذاه من فوائده وألطافه ، فظفر عند ذلك ببعض سؤله ، وقضى بعض أوطاره[4] .

وكذلك المستأنس : تذهب عنه الوحشة فى المواطن التى يفزع فيها الناس ، فيستوى عنده العمران والخراب والقفار[5] ، والجماعة والوحدة ، وذلك الذى استولى عليه من قرب اللهِ عز وجل ، وعذوبة ذكره ، ويغلب ماسواه من العوارض الظاهرة والباطنة .

فهذا ظاهر الأنس الذى يمكن أن يذكره ، ومابقى من مقامات الأنس أكثر وأعز من أن يكون فى كتاب ، إلا أن يجرى منه شىء عند المذاكرة مع أهله .

وبالله التوفيق .

---

(١) سكنت حواس الأشياء مبالغة فى السكون .

(٢) البث : المناجاة المبثوثة بالزفرات .

(٣) الشجوة : الوجد .

(٤) قضى بعض أوطاره : نال بعض بغيته ، ومصداق ذلك قوله تعالى « وتبتل إليه تبتيلا » .

(٥) القفار : الجرداء .

مقامات الصادقين

كل قوم على أقدارهم
امتحان المؤمن
علامة الواصلين
مقام القرب

كل قوم على أقدارهم

واعلم أيها السائل عن الصدق وشرحه : أن الذى ذكرته لك ، إنما هو ظاهر الصدق والصبر ، والإخلاص الذى لايسع الناس جهله ، ولاترك العمل به ؛ خاصة المريدين من الناس ، الطالبين لسلوك سبيل النجاة .

ومن الناس : من لايكون له عند الله تعالى إلا هذا العلم الظاهر والعمل الظاهر ، فيفعل فى ذلك ويصدق فيه ، فيؤديه ذلك إلى رحمة الله تعالى وثوابه ، وله عند الله خير كثير .

ومن الناس من يصدق فى هذه المقامات التى ذكرناها وأكثر ، فيؤديه ذلك فى عاجل الدنيا إلى المقام الرفيع والعلم بالله والمقام الشريف ، فيصير إلى الروح والراحة ، والنعمة بمعرفة الله عز وجل ، والظفر بقرب الله تعالى ، والوصول إلى المنزلة الشريفة ، التى يدق[1] وصفها وشرحها .

وقال بعض العلماء بالله تعالى : إن الله يكرم أولياءه بكرامة لايطلع عليها العباد ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

(١) يدق : دق الأمر يدق إذا غمض وخفى معناه فلا يكاد يفهمه إلا الأذكياء .

ألم تسمع لقول الله ، عز وجل : (فَلاَ تعْلمُ نَفْسٌ ما أُخْفِى لهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)[1] .

ويقال فى الحديث : «فيعطون مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»

وهكذا كل قوم على أقدارهم .

ومنهم من لاتنقضى كرامته من ثواب الله تعالى ، ومن النعيم فى الجنان ، ومنهم من لاتنقضى كرامته من الله تعالى ، والزيادة من بره والنظر إليه .

وقد صح الخبر عن النبى ﷺ أنه قال : «إن أدنى[2] أهل الجنة منزلة من ينظر فى ملكه ألفى عام يرى أقصاه[3] كما يرى أدناه»

ومنهم من ينظر إلى وجه الله جل وعز كل يوم مرتين .

ومحال أن يكون هؤلاء سواء ، أو كان علمهم فى الدنيا سواء .

قال جل ذكره : (وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبيِّينَ عَلَى بعْضٍ)[4] .

فلم يقع التفضل على الخلق إلا بفضل علمهم بالله تعالى والمعرفة به ، ثم على قدر هذا الأنس : تفاوتوا فى الدنيا والآخرة .

وبالله التوفيق .

---

(١) الإسراء : من الآية ٥٥ .
(٢) أدنى : أقل :
(٣) أقصى : أبعد .
(٤) السجدة : ١٧ .

امتحان المؤمن

قلت : فهل يصير العبد إلى حال يفقد مطالبة الصدق من نفسه ، ويسقط عنه مؤنة الأعمال ، وأثقال الإخلاص ، ومؤنة الصبر ، ويكون عاملا بالصدق : فأخذ مما ذكرت وأكثر بلا اشتغال ولاتعب ؟

قال : نعم ، ألم تسمع الحديث الذى يروى : «إن الجنة حُفت بالمكاره وحُفت النار بالشهوات » .

ويروى فى خبر آخر : «إن الحق ثقيل مرىء[1] ، وإن الباطل خفيف وبىء[2] » .

والنفس مجبولة بحب هذه الدار والسكون إليها ، وحب الدعة[3] والراحة فيها .

أما الحق واتباعه والعمل به ، والصدق وأخلاقه ؛ فذلك كله هو خلاف محبوب النفس .

فإذا عقل العبد عن الله تعالى وفهم مادعاه إليه من العزوف[4] عن

(١) مرىء : طيب .

(٢) وبىء : كثير مرضه : (ضرره) .

(٣) الدعة : الترك (حب الراحة) .

(٤) عزف عن الدار : انصرف عنها .

هذه الدار الفانية ، والرغبة فى الدار الباقية ، حمل عند ذلك نفسه على احتمال المكاره : من ركوب طريق الصدق ، وعزم على بذل المجهود ، وصبر لله تعالى ، وكابد[1] نفسه ، واستعان بالله تعالى ؛ فنظر الله تعالى إليه راغباً فيما لديه ، حريصاً على أن يرضيه ، وعاد عليه عند ذلك بلطفه وعونه ، فسهل عليه العسير مما استصعب من نفسه ، وأبدله بالمرارة حلاوة ، وبالثقل خفة ، وبالخشونة ليناً ودعة ، فسهل عليه قيام الليل ، وصارت المناجاةَ لله تعالى ، والخلوة بخدمته له نعيماً بعد شدة المكابدة ، وصار الصيام ، والظمأ فى الهواجر[2] : خفيفاً عليه ، حين ذاق عذوبة مارجا من روح الله تعالى ، وحسن عاقبته .

وكذلك : تبدلت وسهلت : الأخلاق ، والأحوال ، عليه ، حين قام له من كل مقام عاناه وكابده لله تعالى ، التماس رضاه عوضٌ مكانه من الخير ، فتغيرت عند ذلك أخلاقه ، وانتقل طبعه وهدأت نفسه وانتعش عقله ، وسكنه نور الحق فألفه ، ونفر عنه الهوى وطفئت ظلمته ، فصار عند ذلك الصدق وأخلاقه طبعاً له ، لايحسن غيره ، ولا يألف إلا إياه ، ولا يسكن إلى غيره ، واكتنفته[3] العصمة من ربه .

فضعف عند ذلك كيد عدوه ، وصار مغلوباً ، حين ماتت دواعيه

---

(١) كابد نفسه حمل نفسه المشقة .

(٢) الظمأ فى الهواجر : شدة العطش فى الحر الشديد .

(٣) اكتنفته العصمة : أحاطته من كل جانب .

من الباطل ، وكلَّ[1] سلاحه ، بموت الهوى وانقياد النفس ، حين تخلقت بأخلاق المرحومين .

قال الله جل ذكره حين أخبر عن يوسف عليه السلام : (إنّ النفس لأمارةٌ[2] بالسوء إلا مارحم ربى)

فأنفس الأنبياء والصديقين عليهم السلام مرحومة ، وكذلك كل مؤمن على حسب قوة إيمانه ، فسقطت عند ذلك عن البعد معاناة الصدق ، وثقل العمل به ، فصار عاملا بالصدق الذى ذكرناه ، وأكثر بأضعاف كثيرة بلا مؤنة ، بل صار ذلك نعيما وغذاء ، إن تركه توحش من تركه وتفزع[3] من فقده ، فصار الصدق وأخلاقه صفة له ، لايحسن غيرها ، حتى كأنه لم يزل كذلك .

ومصداق ذلك فى الكتاب والسنة موجود .

قال الله تعالى : (والذين جاهدُوا فينا لنهدِينهم سُبُلنا ، وإنَّ الله لمعَ المحسنينَ)[4] .

وقال عز وجل : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيستخْلِفنَّهم فى الأرض كما استخلف الذين مِن قبلهم ، وليمكنن لهمْ

(١) كل السيف : أى لم يعد يقطع .
(٢) لأمارة بالسوء : تهم بالسوء .
(٣) تفزع من فقده : كثر خوفه .
(٤) العنكبوت : ٦٩ .

دينهم الذى ارتضى لهم وليبدِّلنهُم مِن بعدِ خوفهم أمناً يعبدُوننى لايشركونَ بى شيئاً)[1] .

وقال عز وجل : (ونريدُ أن نمنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض)[2]

وقال عز وجل : (وجعلنا منهم أئِمةً يهدُونَ بأمرنا ، لما صبروا)[3] أى عن الدنيا .

وإنما أردنا أن نثبت المجاهدة للنفوس ، وبذل الجهد[4] فى الصدق .

ثم إن المعونة من الله تأتى من بعد ذلك ، والحجة فى ذلك قائمة فى السنن .

قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير سورة « طه » قال : معنى « طه » : يارجل ، بلسان الحبشية : (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) قال : لتعنى به .

أفلا ترى أنه حين قام ﷺ لله عز وجل شكراً ، حتى تورمت قدماه شكراً لله تعالى ، فأمره بالهدوء ؟

---

(١) النور : ٥٥ .

(٢) القصص : ٥ .

(٣) السجدة : ٢٤ .

(٤) الجهد : الوسع والطاقة .

وقد روى : «أن النبي ﷺ كان يتعبد فى جبل حراء الشهر وأكثر » [1]

وكذلك يروى : «أن النبي ﷺ كان يحرس ويحفظ من عدوه ، حتى نزلت هذه الآية : (والله يعصمك من الناس) فنحى [2] الحرس تصديقاً لقول الله عز وجل حين ذكره له : أنه يعصمه ، فأيقن وسكن ﷺ .

وكذلك المؤمنون يأتيهم اليقين بعد الضعف ، وكذلك النبي ﷺ كان يخرج إلى الغار بالجبل الذى يقال له : ثور ويختبئ هو وأبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، ثم يخرجان إلى المدينة هاربين فى السر.

وهذا إنما كان وقت البلوى من الله تعالى له ؛ إذ كان عليه السلام فى مقام الصبر والمجاهدة ، ثم من بعد ماصار إلى المدينة عليه السلام تغزوه قريش يوم وقعة أحد فتقتل أصحابه وتكسر رباعيته [3] عليه السلام ، ويدمى وجهه .

أفلا ترى أن الهوى [4] والمحنة لازمة له ، وللمؤمنين طالبة لهم ؟ ثم إنه ﷺ يخرج هو وأصحابه ، فيهل [5] ويسوق الهدى ، يريد

(١) رواه البخارى .

(٢) نحى الحرس : عزلهم .

(٣) رباعيته السن التى بين الثنية والناب .

(٤) منازعة النفس .

(٥) يهل : يرفع صوته بالتلبية (لبيك اللهم لبيك . فى الحج) .

العمرة[1] فتمنعه قريش من دخول مكة ، حتى اضطرب الناس ، فأحل[2] بالموضع الذى يسمى الحديبية ورجع ولم يدخل الحرم !!

ثم انظر الآن حين انقضت مدة البلاء وجاء النصر كيف دخل مكة ، ﷺ فقتل وأمن من شاء ، ثم بشر عندها بالمغفرة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر﴾[3] الآية

وهذا موسى ﷺ ومنزلته عند الله ؛ فانظر إلى عظيم بلائه ، حين حملت به أمه ، كيف ذُبِحَت النساء ، وقتل الولدان ، فى طلب موسى ، عليه السلام ! فرجع بلاؤه على الخليقة .

ثم أخبر الله عز وجل عنه فقال : «فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب ؟ »[4] .

وقال : ﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقب قال : ربِّ نجنى من القوم الظالمين ؟﴾[5] .

ثم انظر أيها المريد ، الطالب للوصول إلى كرامة الله عز وجل ،

---

(1) العمرة : الحج الأصغر (وهو مأخوذ من الاستعمار أى الزيادة) .

(2) أحل : خرج من إحرامه .

(3) الفتح : ١ ، ٢ .

(4) القصص . يترقب : ينتظر .

(5) القصص : ٢٠ ، ٢١ .

بالتوانى والتفريط [1] . ألم يبلغك أن موسى ، عليه السلام لم يصل إلى امرأته حتى رعى الغنم وخدم عشر سنين ، ثم أرسله الله تعالى وكلمه وأظهر برهانه ؟ !

فقال : (لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى) ؟ !

فحين قال لهما : «لاتخافا » هل خافا ؟ ألم يجعل لهما آية فى عصا ، فظهرا[2] على كيد السحرة ، وهزما الجيوش ، ثم أداله[3] الله تعالى من أعدائه ، وأغرقهم أجمعين ؟ !

وهذا يوسف عليه السلام حين أخبر الله تعالى عنه : أنه يلقى فى الجب ثم يباع بثمن بخس : دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين ، ثم لم يفارقه البلاء ، حتى فتن بامرأة العزيز وسجن السنين الكثيرة .

ثم انظر كيف أداله الله تعالى على إخوته ، ثم أخرجهم الله تعالى ، فأظهر برهانه وجعله على خزائن الأرض .

وكذلك الأنبياء الذين ذكرهم الله ، عز وجل ؛ عليهم السلام .

وفى هذا بلاغ لمن فهم عن الله عز وجل وعن العلماء الأدلاء [4] على الطريق إلى الله عز وجل ! !

---

(١) التوانى والتفريط . التوانى من توانى توانياً إذا لم يهتم ولم يحتفل بالأمر ، والتفريط من فرط تفريطاً إذا ضيعه .

(٢) ظهر : تغلبا .

(٣) أداله الله : جعل الغلبة له على عدوه .

(٤) الأدلاء : المرشدين الكاشفين .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وما روى عنه : أنه ماسلك طريقاً قط إلا سلك الشيطان طريقاً غيرها ، وقال : «إن الشيطان ليفر من جبين عمر» وقد كان بالأمس من اللات والعزى فى أمور ترضى الشيطان !

فانظر كيف أخلص لله تعالى وصدق إن كان منه العدو وباطله .

وروى عن ثابت البنانى رحمة الله عليه أنه قال : «كابدت [1] القرآن عشرين سنة ، وتنعمت به عشرين سنة»

وقال بعض الحكماء : «إن القوم لم يزالوا يمضون [2] الصبر حتى صار عسلاً» .

وقال بعض الحكماء : «إن دون[3] كل بر عقبة ، فمن تجشم ركوبها أفضت[4] به إلى الراحة ، ومن هاله [5] ركوب العقبة فلم يرقها[6] بقى مكانه !»

قلت : فلا بد من هذه البلوى والاختبار ؟

قال : لابد منه لكل عبد رفيع القدر عند الله عز وجل ، من أهل

(١) كابد : تحمل المشاق .
(٢) يمضون الصبر : يتحملون أله .
(٣) دون كل بر : قبل كل بر .
(٤) أفضت به : انتهت به .
(٥) هاله : أفزعه .
(٦) يرقها : يصعد إليها .

المعرفة بالله ، عز وجل .

وقد صح الخبر عن النبي ﷺ : «أنه سئل : من أشد الناس بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الصالحون ثم ، الأمثل ، فالأمثل »[1] .

يبتلى العبد حسب دينه : فإن كان في إيمانه قوة شدد عليه البلاء ، وإن كان في إيمانه ضعفٌ خفف عليه البلاء .

فالأنبياء عليهم السلام ، بادأهم الحق عز وجل ، بكرامة الرسالة ، وبشرهم بالنبوة ، ثم حمل عليهم البلاء ، فاحتملوا البلاء بقدر الكرامة التي أكرمهم بها ، حتى راضهم[2] بالبلاء وتفقهوا فيه ، وبه صبروا لله عز وجل ، حتى نصروا .

والمؤمنون قامت لهم الرغبة في ثواب الله عز وجل الذي وعدهم ، والرهبة من عقابه الذي به تواعدهم ، فصبروا لله تعالى وأخلصوا وصدقوا ، فشكر الله تعالى لهم ذلك ، وأظهر برهانهم على الخليقة ، فجعلهم علماء يقتدى بهم ، وأسكن اليقين قلوبهم .

ثم إن المؤمنين ، بعد ذلك على وجهين :

فمنهم : من يبدؤه الله تعالى ، بالنعمة والمنة والموهبة ، فيهب له

---

(١) رواه الطبراني بسند حسن . وله شواهد في مسند أحمد ، والبخاري والترمذي ، وابن ماجه .

(٢) راضهم بالبلاء : أسلس قيادهم به : أي جعل أنفسهم راضية بالبلاء حتى صار الحلم طابعها والدماثة من سجاياها .

الإنابة ، ويحبب إليه البر ، ويسهل عليه الطاعة ، ويبدؤه بالمنن الكثيرة .

فإذا تمكن الروح فى قلبه ، واستعذب الأعمال الصالحة حمل عليه ، بعد ذلك البلاء والاختبار والمصائب والضراء والعسر والشدة نعم .

ثم تؤخذ منه الحلاوة التى كان يجدها ، والنشاط فى البر ، فتثقل عليه الطاعة بعد خفتها ، ويجد المرارة بعد الحلاوة ، والكسل بعد النشاط ، والكدر بعد الصفاء ، وذلك لعلة البلوى والاختبار ، فتعتريه الفترة [1] .

فإن جّاهد الآن وصبر واحتمل المكروه ، صار إلى حد الراحة والبلوغ ، وأضعف له البر ظاهراً وباطناً ! !

وهكذا يروى فى الحديث : « إن لكل شرة [2] فترة ، فمن كانت فترته إلى سنة [3] : فقد نجا ، وأن كانت فترته إلى بدعة [4] فقد هلك »

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « طوبى لمن مات فى النأنأة بدء الإسلام وشرته »

ويروى فى الحديث : « إن الله عز وجل ، يأمر جبريل عليه السلام ، فيقول : اقبض حلاوة الطاعة من قلب عبدى ، فإن تأسف عليها فردها عليه وزده وإلا فدعه » !

---

(١) الفترة : انكسار الحدة وذهاب النشاط .

(٢) الشرة : الحدة .

(٣) السنة : الطريقة التى مات عنها الرسول ﷺ والصحابة والتابعون .

(٤) البدعة : ماخالفت السنة . والحديث رواه البيهقى .

ويروى فى حديث آخر : « إن الله عز وجل ، يقول : إن أدنى[1] ما أصنع بالعالم إذا ركن إلى الدنيا أن أنزع حلاوة مناجاته إياى من صدره ، وأن أدعه فى الدنيا حيران » .

وفى خبر آخر : إن العبد إذا ركن إلى الدنيا بعد العلم والمعرفة والعلم بالبصيرة ، يقول الله عز وجل ، لجبريل عليه السلام : « انزع حلاوة مناجاته إياى من صدره ، وأعطه من الدنيا مقصماً[2] يشتغل به عنى » .

أما العبد الثانى : فإنه يبدأ بالصدق والأعمال الصالحة وأخلاق الصدق ، ثم يعمل فى ذلك ماشاء الله عز وجل ، فتأتيه الكرامة بعد ذلك ، فيعطيه الله تعالى مالم يرجه ويحتسبه :

وهكذا عامة البدلاء : لاتأتيهم الآيات والكرامات إلا من بعد العمل وبذل الجهد ، وأكثر مالم يحتسبوا ما أتاهم الله تعالى به ، حين بدأهم الله عز وجل به .

ومنهم من اطلع على القوم وقيل له : إنك منهم ، فعمل بعد أن أخبر بذلك .

ومنهم من يعرف نفسه ولايعرف غيره .

ومنهم من يعرف الجميع بأسمائهم وقبائلهم .

---

(١) أدنى : أقل .

(٢) مقصماً : مقطعاً .

فإن كنت أيها السائل عن الصدق وشرح الطريق ، قد عملت فى الصدق ماذكرته لك من العلم ، وباشرت هذه المنازل ، ونزلت هذه المراحل ، وقطعت هذه الأسباب التى ذكرناها ، فأفضيت منها إلى الراحة والسكون والطمأنينة ، فأنت محاط بالعصمة ، وماض على سبيل الاستقامة والمحجة البيضاء ، التى توردك على الله عز وجل ، فهنيئاً لك ، وبارك الله فيك ، فأنت من أمرك على بصيرة .

فإن كنت قد باشرت الصدق وعملت فى كل مقام البر بقدر طاقتك وما أذن الله تعالى لك ، وعاينت الأمور ، فعسى أن يكون الله قد رآك ، وقد أبليت [1] فيما بينك وبينه ، عذراً لرغبتك فى التقرب إليه ، فصح إليه افتقارك ، حين علمت أنه لابد لك منه ؛ فألقيت كنفك [2] بين يديه ، فعسى أن يكون قد رآك فى بعض الأوقات إليه قاصداً راغباً ، بنية صحيحة وعزم صادق ، علم أنك لاتمل ولاتبرح من التعرض له دون بلوغ مناك ، فجادلك ببره ، وأعطاك بعض الأمل منه ، بل جذب قلبك إليه جذبة ، فأسكنه اليقين ، وأشرف به على الآخرة ، فسهل عليك عند ذلك العسير ، وألان لك من نفسك الصعب الذلول ، ثم اختصر بك الطريق إليه ، فقرَّ قرارُك وقامت حياتك وطاب عيشك .

فبذلك تعرف السيّدَ الكرَيم الذى لاتنقصه المواهب ، ولاينفد

(١) أبليت : خرجت من الامتحان فائزاً منتصراً .

(٢) كنفك : جانبك .

نائله ، لأنه البرُّ الرحيمُ ، الذى تَسَمى الشكور ! !

فيا عجباً كلَّ عجب ، وعجبَ كلِّ متعجّب ، ولا عجب ، إذ كان السيّد الكَريم يفعل مايريد .

ولكن موضع العجب يلزم العبيد من شكره لعبيده ، الأمر الذى بدأهم به ودلهم عليه ، واستعملهم به وحفظ عليهم ، ثم أحبهم عليه ونسبه إليهم فعلا ، ثم كتبه لهم فى المقبول ، ثم أثنى به عليهم بماوعدهم عليه الجزاء ! !

فهذا البر الآن من الكريم لانقف عليه العباد ، بل تحيرُ فيه العقول !

هيهات أيها السائل المريد ! ! أستيقظ من طول هذه الرقدة ، إنما هذه أسماء علقها عليهم أنهم فاعلون ، وأمور نسبها إليهم وما أظنها إلا له ، والتوفيق والصنعة منه فى صنعته التى تفرد بإنشائها وإبدائها لما شاء ، وهو الفعال لما يريد ، الذى يصيب برحمته من يشاء ! !

والعقلاء عن الله عز وجل ، من عباده يتلقون الأمور على هذا الوصف والشرح ، ويرجعون فى الأشياء إليه ، ويرونها منه سبحانه ، لأنه كان بدأها ، وعليه تمامها ، فهو القائم بها وإليه مرجعها ! ! !

و (للهِ الأمْر مِنْ قَبْل وَمِنْ بَعْدُ)

(أَلاَلَهُ الخلقُ وَالأمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالِمينَ) .

وأما الضعفاء من الخلق ، فإنهم يَرَوْنَ لأنفسهم هاهنا فعلا هيهات إذا صدقوا وأخلصوا طلبوا الجزاء من الله عز وجل على ذلك ، وذلك

مبلغهم من العلم ، ولهم عند الله تعالى خير كبير .

وأذكر لك مقاماً آخر ، فاعرض نفسك ، وغيرك عليه ممن تراه من العبيد ، يشير إلى المعرفة والعلم ، والسكون إلى الله عز وجل .

فإن كنت قد شربت بكأس المعرفة بالله تعالى ، فأطلعك الله بصفاء اليقين ، على ماسبق لك عنده فى القديم ، حين أرادك قبل أن تريده وكان لك عالماً قبل أن تعرفه ، وذكرك قبل أن تذكره ، وأحَبكَ قبل أن تحبه ، فهاج منك الآن الشكر له على أياديه[1] ، فألزمت قلبك المحبة على أياديه ، فآثرته وارتاحت روحك إليه ، فألفت قربه ، فصرت الآن إليه تأوى ، وفى قربه تسكن ، فهو لايغيب عنك ولاتفقده ذاهباً وجائياً وقائماً وقاعداً ، ويقظان وراقداً ، وعلى كل حال .

أما سمعت مايذكر عن النبى ﷺ حين يقول :

« تنام عيناى ولاينام قلبى »[2]

وكذلك المؤمنون على أقدارهم .

فما أعظم شأنك[3] أيها العبد وأجل خطبك ، إذ كان السيّد الكَريم الكبير المتعال الغنى الحميد ، ذكرك ذكراً بعد ذكر فخصك ، فأجزل

(١) أياديه : نعمه .

(٢) بسند ضعيف ابن سعد عن الحسن مرسلاً .

(٣) شأنك : قدرك .

لك العطية ، إذ دَّلك على محبته فآثرته ، فكان هو بُغْيتَك ومرادك[1] ، ومنتهى رغبتك وليس منك شيء تملكه للعباد ، ولكنها موهبة ، وهى أوّل أعلام الوصول إلى الراحة يكون الله مُراد العباد لاغيره .

ومن علامة ذلك : أن يكون هو الحافظ عليك ، ما استودع قلبَك من ذكره ومودته ، وأوجدك من قربه وتعطف عليك ببره ، فسامحك الآن ، فسقطت عنك حركاتُ الطلب للظفر أو التقرب ، إلا حركة تهيّج منك الآن شكراً له على أياديه ، وإيجاباً لحقه وأُلْفَةً[2] له غيره ، والتنعم بمناجاته ، ولذة خدمته ، وما أراد فيك من تعبده بمشيئته ، ليريك موضِعَ قُدْرته ، واختلاف أحكامِه عليك لتفقه عنه ، وأنتَ فى ذلك : واجدٌ لقُرْبه ، وغَيرُ متشاغل بحركاتك ، ولاطالب منه عليها جزاءً وثواباً ، كما أراد العبَّاد الزهاد ، ولكن تعمل لله تعالى حبًّا وكرماً ، لأنه خلقك كرماً واسْتعمْلتَ بأخلاق الكرماء .

وبالله التوفيق .

---

(١) مرادك : طلبتك واختيارك .

(٢) ألفة : محبة وائتلافاً ، أى التئاماً واجتماعاً .

علامة الواصلين

وهذا الآن جوابٌ لك آخر ، على مسألتك ، حين قُلْت : هل يصير العبد إلى حالٍ يفقد مُطالَبة الصِّدْقِ من نفسه ؟ وهى علامة الواصلين ، فافهمها .

أما علمت أيها المريد : أن الورع والزّهد والصبر والتوكل والخوف والرجاء والمراقبة والحياء والمحبة والشوق والأنس والصِّدق فى المواطن والإخلاص فيها ، وكل خلقٍ حسن جميل : إنما هى منازل نزلها العمال لله ، عز وجل ، ثم ارتحلوا منها إلى غيرها ، حتى وصلوا إلى المنى من قرْب سيدِهم ؟ !

فما أنت وذكرُ المنزل الذى نَزلْته حتى أوصلك إلى بُغْيتك ، إن كنت واصلا ظافراً ببعض حظك من مطلوبكَ ؟ فأنت كأنك مشاهدُه .

فعليه الآن فازْدَدْ إقبالا ، وإليه فأدِم النظر وأصغ إليه بالآذان الواعية ، فإنه أقربُ إليك منك إلى نفْسك ، فما أنت الآن وذكر الصدق ؟ ! وإنما هو منزل من منازل الطالبين .

وبعدُ ، فإن كان قد فتح لك الباب الذى كان بينك وبينه مغلقاً ، وكشف عن قلبك السِّتر الذى كان عليه مرخى ، فأوْجَدك قُرْبه ، ولاطفك ببعض التأنس ، فعساك أن تكون قد صرت إلى بعض سُؤْلك فقرّ قرارُك .

وإن كنت وغيرُك من الطالبين : إنما فقدت وجُودَ مطالبة الصدق ، وما أشبهه من الأمور من وجُودِك لقُرْبِ الله عز وجل والتشاغُل به ، فتلكَ بُغْيةُ العَارِفين بالله عز وجل .

وكذلك فافهمها من نفسك ومن غيرك ، ولاتتخذ عن لنفسك من حظك من ربك .

واعلم أن الواصلين إلى الله عز وجل ، وأهل القرب منه ، الذين قد ذاقوا طعم محبة الله تعالى بالحقيقة ، وظفروا بحظهم من مليكهم ؛ فمن صفاتهم : أن الورع والزهد والصبر والإخلاص والصدق والتوكل والثقة والمحبة والشوق والأنس والأخلاق الجميلة ، ومالم يكن يمكن أن يوصف من أخلاقهم ، وما استوطنوه من البرِّ والكرم فذلك كله معهم ، وساكن فى طبعهم ، ومخفى فى سرائرهم ، لايحسنون غيره ، لأنه غذاؤهم وعادتهم ، لأنهم فرضوا ذلك على أنفسهم فرضاً ، وعملوا فيه حتى ألفوه ، فلم يكن عليهم بعد الوصول كُلْفة[1] فى إتيانه والعمل به ، إذا حل وقت كل حال ، لأن ذلك غذاؤهم ، كما ليس لهم فى أداء الفرائض ثقلٌ ولا علاجٌ[2] .

وذلك لما غلب على قلوبهم من الإيثار لله عن وجل ، والقُرْب منه ،

---

(١) كلفة : مايكلف به الإنسان على مشقة .

(٢) ومنه قوله ، ﷺ ، فى شأن أحد الصحابة . « قام العبد صهيب لولم يخف الله لم يؤمنه » .

فهم عاملون به بلا مؤونة ، بل بلا تشاغل بالأعمال الظاهرة ، لأن الخدمة والأعمال الظاهر : إنما تقع على ظاهر الجوارح .

فافهم هذا الموضوع ، والقلوب بعد ذلك ذاهلة ، بل هى بالله مشغولة للذى استولى عليها من قرب الله عز وجل ، والمحبة لله والشوق إليه والرهبة منه والتعظيم له والإجلال .

فافهم أيها المريد ماألقيت إليك وتدبره تجده بيناً معروفاً ، إن شاء الله تعالى .

فأحضر الآن عقلك ، واجمع همك ، ولاتسمع العلم وأنت عازب [1] الفهم عن الذى يُلقى إليك ، فلا عذر لك الآن بعد العلم والبيان ، بل قد تأكدت عليك الحجة ، فاعمل فى التخلص إلى الله عز وجل ، لعلك تتخلص ، فتقر عينك بمعرفته فى هذه الدار عاجلا قبل الآجِل .

نعم ، ثم يدوم حزنك ، ويشتد كربك ، وتزداد كل حال كنت تجدها أضعاف ماكنت تجدها قبل المعرفة والوصول .

ومصداق ذلك فى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ قال الله عز وجل : (إنما يخشى الله مِنْ عِبادِهِ الْعُلَمَاءُ) .

وقال النبى ﷺ : «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية» [2] .

---

(١) عازب : غائب .

(٢) خشية : خوف .

وقال ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصعدات ، تجأرون[1] إلى الله »

وعلى حسب ذلك كان ﷺ

وكذلك العارف بالله ، القريب من الأشياء ، الموفق فى كل حال يحل فيها بمايكون فيها : بخلاف غيره من الناس .

ثم على هذا القياس ، وفى هذا بلاغ لمن فهم وتدبر .

والله التوفيق .

(١) تجأرون : ترفعون أصواتكم بالدعاء . والحديث متفق عليه إلى قوله «كثيراً» ورواه بهذه الزيادة أحمد والحاكم .

المقربون

قلت : متى يألف العبد أحكام مولاه ، ويسكن فى تدبيره واختياره ؟

قال : الناس فى هذا على مقامين ، فافهم .

فمن كان منهم إنما يألف أحكام مولاه ، ليقوم بأمره الذى يوصله إلى ثوابه ، فذلك حسن وفيه خيرٌ كبير ، إلا أن صاحبه يقوم ويقع ، ويصبر مرة ويجزع أخرى ، ويرضى ويسخط ، ويعبر ويراجع الأمر ، فذلك يؤديه إلى ثواب الله ورحمته ، إلا أنه معنى فى شدة ومكابدة .

وإنما يألف العبد أحكام مولاه ، ويستعذب بلواه ، ويسكن فى حسن تدبيره واختياره بالكلية بلا تلكؤ[1] من نفسه : إذا كان العبد : آلفاً لمولاه ولذكره ، وهو له محبٌّ وادٌّ ، وبه راض ، وعنه راض .

فهل يكون ، أيها السائل ، على المحب مؤونة فيما حكم عليه محبوبه ؟ كيف ؟ وإنما يتلقى ذلك بالسرور والنعيم ! !

هكذا قال فى الخبر : حتى يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة .

وقال فى خبر آخر : غنية الصديقين : مازوى[2] عنهم من الدنيا »

---

(١) تلكؤ : تباطؤ .

(٢) زوى : جمع والمعنى : (نفى عنهم جمع الدنيا) .

وروى عن الله عز وجل فى بعض ما أنزل من كتبه : أنه قال : « معشر المتوجهين إلىَّ بحبى ، مايضركم مانابكم من الدنيا ، إذا كنتُ لكم حصناً ، وما يضركم من عاداكم إذا كنت لكم سلماً ؟ ! »

فمن كان مع الله عز وجل ، بهذ الأحوال فى المواطن ، كيف يكون إلا على نحو ماذكرناه ! !

ولقد قال بعض العلماء بالله تعالى ، وأهل القرب منه : إن القوم الذين ذكرنا بعض أحوالهم لايرضون من أنفسهم أن تكون تقاوم الأمور عند حلولها ، والأحداث عند نوازلها ، حتى تتمكن من قلوبهم ، فيحتاجون أن يصبروا عليها أو يرضوا بها ، بل الصبر والرضا لهم ، تابع مضاف ، لأنهم طالبوا من أنفسهم صحة الشغل بالله تعالى ، والانفراد به ، فلم يرضوا عند ذلك أن تكون الأمور النازلة بهم تقاوم ذكر الله تعالى ، حتى تساويه : (والله غالب على أمره) .

وبعد ، فإنهم عبيد محكوم عليهم ، وإن أقل القليل فى الأوقات يملكهم ، حتى يقروا لله تعالى ، بالضعف ويسألوه العون ، فلا تعجب ، إذا بدا[1] لك من أحد منهم شيء من ذلك ، فهذا النبى ، ﷺ ، يقول : « إنى بشر ، اللهم من دعوت عليه فاجعل دعائى عليه رحمة » .

وسمعت بعض العلماء بالله عز وجل ، يقول : إن من شدة اتصال العبد بمولاه ووجده به ، ونزوله فى قربه لايجد طعم اختلاف الأحكام ،

(١) بدا : ظهر .

بل يكون معه النظر الخفى إليها ، حتى كأنها على غيره أو بغيره نازلة .

فهذا غاية من التلقى للأحكام ، فافهم هذا الموضوع وتدبره ، فإنه يؤديك إلى علم السكون إلى الله عز وجل ، إن شاء الله .

وإنما يكون السكون إلى الله تعالى ، والطمأنينة على قدر القرب من القلب .

ومن شرح السكون إلى الله تعالى ، فقد حس الأشياء من القلب وسكون دواعى الهم ، وهدوء الضمير مع الله وإلى الله تعالى !

فعند ذلك تكون الأمور من الدنيا والآخرة ، وأعمال البر والطاعة طالبة للعبد ولاحقةً به ، وإليه محتاجة وإليه واصلة ، بل إليه موصولة ، لأنه عزف عنها[1] واستغنى بمالكها فوصلت إليه .

قال الله عز وجل : (أليس الله بكافٍ عَبْدَهُ)[2]

وبلغنا أن الله عز وجل ، أوحى إلى عيسى عليه السلام : «أنزلنى منك كهمك واجعلنى ذخراً لك فى معادك»[3] .

وروى عن النبى ﷺ : من غير طريق أنه قال : «من جعل الهم هماً واحداً[4] كفاه الله سائر همومه» .

---

(١) عزف عنها : انصرف عنها .

(٢) الزمر : ٣٦ .

(٣) معادك : آخرتك .

(٤) فى رويات أخرى : من جعل الهم همًّا واحداً هو المعاد . . أو هو التقوى .

وروى عن الفضيل بن عياض رحمه الله ، أنه قال : «ماعجبت من عبادة ملك مقرب ولانبى مرسل إذا كان الله عز وجل قواهم على ذلك » .

وهكذا من ذكرناه من القوم وصفاتهم .

فمن نظر إلى عبيد الله تعالى ، بنفسه وقياسه ، وبأنفسهم مايشبههم فهم عنده فى موضع النقص أبداً .

فإذا نظر إليهم بالله عز وجل ، وبقوته وتدبيره فما يعجب ؟

وبالله التوفيق .

مسألة تدل على ماذكرناه ، قلت : فما تقول فى عبد كان لايتكلم ولايتحرك ، ولايعمل عملا إلا طولب عليه فى ذلك ووجد النقصان ولحقته الفترة والقسوة فى أوقات نيله وأكله وشربه ، وكذلك فى جميع أحواله ، ثم صار إلى حالٍ يتكلم ويتحرك فى الأمور ؛ ويقبض ويبسط ، ويأكل ويشرب ، ولا يستوحش ولايجد مطالبةً ولايرى نقصاً كما كان يراه قبل ؟

فقال : «هذه مسألة حسنة فافهمها ، فما أحوج المريدين العمال إليها » .

اعلم أن المريد الطالب للصدق ؛ فهو عاملٌ فى جميع أموره بالمراقبة لله عز وجل بالقيام على قلبه وهمه[1] وجوارحه ، بالمحاسبة .

(١) الهم : أول العزيمة .

« فهو جامع لهمه حذراً من أن يدخل فى همه مالا يعنيه حذراً من الغفلة »

فالحركات فى ظاهر جوارحه بجوارحه تنقصه ، والهمم الداخلة عليه فى قلبه تكدر همه[1] ، فهو عند ذلك يتفرغ من الحركات التى ذكرت ، وإن كانت فى حق وبحق ، وذلك لما غلب على قلبه من محبته أن يكون ذكره دائماً ، وهمه واحداً .

فإذا دام على ذلك تفطن قلبه وصفت فكرته ، وسكن النور قلبه وقرب من الله تعالى ، فغلب على قلبه وهمه !

فعند ذلك يتكلم والقلب يغلى بالذكر لله عز وجل ، وقد كمنت[2] فى سويداء[3] قلبه محبة الله تعالى ، فهى لازمة للضمير لاتفارقه .

فمن شأنه فى سرائره أن يكون ناعماً بالمخاطبة لله الخفية ، والمطالعة الشجية والمحادثة الشهية .

وهكذا يكون فى أكله وشربه ونومه وكل حركاته ، لأن قرب الله تعالى ، إذا تمكن فى قلب العبد غلب على ماسواه من باطن عوارض الهمم ، وظاهر حركات الجوارح ، فعندها يكون العبد ذاهباً وجائياً ،

---

(١) همه : انشغاله .

(٢) كمنت : اختفت .

(٣) سويداء قلبه : حبة قلبه .

وآخذاً ومعطياً ، والغالب عليه هم ماقد ملك ضميره من محبة الله عز وجل وقربه .

ألم تر نفسك ، أيها المريد كيف تملك قلبك أحيانا هم من أمر الدنيا ، فيسلبك عن كل شيء ، حتى يكدر عليك العيش ، فتكون ساهياً إلا عن ذلك ، حتى تفقد النوم ؟

فأمر الله عز وجل : أحرى عند العقلاء وأولى .

فعندما ذكرنا صحبت العبدَ من الله عز وجل العصمة ، فكان محفوظاً من النقصان .

خاتمة الكتاب

فافهم أيها السائل : ما يلقى إليك وتدبره ؛ ينفعك إن شاء الله ، تعالى .

وبعد فاعرض ماذكرت لك على ماسألت عنه ؛ فإن أجزاك وكان مافقدت وماوجدت من جنس ماذكرت ، فاشكر الله تعالى يزيدك . ولايخفى على العلماء ما يحدث عندك ، فليس بين المريد ومعلمه رثاء ، إن شاء الله تعالى ، وأنى بمؤدب بصير جهبذ فى زماننا هذا .

وبالله التوفيق .

ناسخ الكتاب

تم كتاب «الصدق» للشيخ العارف «أبي سعيد الخراز»، رحمه الله، ونفع بأنفاسه، وسلم عليه سلاماً طيباً مباركاً فيه.

والحمد لله وصلواته على محمدٍ وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه العبد الضعيف الفقير: إسماعيل بن سودكين، رفق الله به، وأخذ بيده ورحمه ورحم والديه وجميع المسلمين.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الفهرس

رقم الإيداع	٢٠٠٠/١٧٦٥٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6092-4

١/٢٠٠٠/١١٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)